

Semester II

ARB-C-422 - HISTORY OF ISLAMIC CIVILIZATION

(Credit: 4)

مختارات

من

تاريخ التمدن الإسلامي

(مختارات من الجزء الأول والثاني والثالث والرابع والخامس)

M.A. PROGRAMME IN ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE

(Under Credit and Semester System w.e.f. 2020 Admissions)

DEPARTMENT OF ARABIC

UNIVERSITY OF KERALA

Semester II

تاريخ التمدن الإسلامي - (مختارات من الجزء الأول والثاني والثالث والرابع والخامس)

صفحة: 6	مقدمات تمهيدية
7	(١) العرب والتمدن
7	(١-١) قدماء العرب
10	(٢-١) عرب اليمن
12	سد مأرب
12	(٣-١) الأنباط
14	(٤-١) التمدن اليوناني والفارسي
15	(٢) الحجاز في العصر الجاهلي
16	(١-٢) مكة
17	قصين كلاب والكعبة
18	(٣) حكومة العرب في الجاهلية
19	(١-٣) الكعبة والتجارة وقريش
19	سوق عكاظ
20	مناصب القرشيين
22	(٢-٣) النهضة العربية قبل الإسلام
23	سبب تلك النهضة
23	غزو الحبشة
25	الدولة الإسلامية...كيف نشأت؟

25	(١) الدعوة الإسلامية
25	(١-١) نشأة النبي الأولى
26	(٢-١) الدعوة
27	(٣-١) النبي وقريش
28	هل كان يعتقد صدق رسالته؟
30	(٤-١) أهل المدينة والدعوة
31	الروم والفرس عند ظهور الإسلام
31	(١) الروم
32	(٢) الفرس
34	(٣) بين الروم والفرس
36	(٤) الانقسامات الدينية
37	(٥) التناقض بين الروم واليهود
38	(٦) حالة الفرس الداخلية
39	انتشار الإسلام
39	(١) التعاهد بين المهاجرين والأنصار
40	(٢) الغزوات
40	(١-٢) غزوة بدر الكبرى
41	(٢-٢) واقعة أحد
42	(٣-٢) واقعة الخندق
43	(٣) الفتوح

44	(١-٣) واقعة مؤتة
46	(٢-٣) المؤلفات قلوبهم وغزو الطائف
47	(٣-٣) عتب المهاجرين والأنصار
47	(٤-٣) محاولة فتح الشام
49	ظواهر التمدن وحقيقته
50	(١) عصر النبي صلى الله عليه وسلم
50	(٢) عصر الخلفاء الراشدين
50	(٣) عصر بني أمية
50	(٤) عصر العباسيين الأول أو عصر ازدهار العباسي
50	(٥) عصر العباسيين الثاني أو عصر الاضمحلال
51	ثروة الدولة الإسلامية
51	(١) عصر النبي (من سنة ١-١ هـ)
51	(٢) عصر الخلفاء الراشدين
52	(١-٢) بيت المال
53	(٢-٢) ثروة الخلفاء وعمالهم
55	(٣-٢) اقتناء المسلمين للأموال
58	(٣) عصر بني أمية (من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ)
59	(١-٣) أجور العمال
67	(٤) الدولة العباسية
67	(١-٤) العصر العباسي الأول (من سنة ١٣٢ إلى ٢١٨ هـ)

67	سبب قيام هذه الدولة
69	العرب والبيعة
72	علوم العرب بعد الإسلام
72	(١) مقدمات تمهيدية
72	(١-١) الإسلام والعلوم الإسلامية
74	(٢-١) العرب والقرآن والإسلام
75	(٣-١) إحراق مكتبة الإسكندرية وغيرها
82	(٤-١) الرومان والإسلام والعلم
83	(٥-١) حَمَلَةُ العلم في الإسلام أكثرهم العجم
86	(٦-١) تدوين العلم في الإسلام
89	(٧-١) الخط العربي
90	سياسة العرب في عصر الراشدين
90	(١) الجامعة الإسلامية
91	(٢) الجامعة العربية
93	(٣) الانسياح في الأرض
94	(٤) طبقات عربية إسلامية
95	(٥) سياسة الخلفاء الراشدين
96	(١-٥) أبو بكر
97	(٢-٥) عمر بن الخطاب
98	(٣-٥) عثمان بن عفان

98	(٤-٥) علي بن أبي طالب
100	(٦) انتشار العرب في الأرض
101	(١-٦) الاستكثار بالتناسل
102	(٢-٦) انتشار العرب بالفتح
104	(٣-٦) انتشار العرب بالمهاجرة
105	(٤-٦) بنو سليم وبنو هلال
106	(٧) العبيد والموالي في الإسلام
106	(١-٧) الرق في الإسلام
109	(٢-٧) الموالى في الإسلام
113	العائلة في التمدن الإسلامي
114	الحجاب
115	تعدد الزوجات
116	الطلاق
117	المعيشة العائلية
117	الطعام
118	اللباس: لباس العرب الجاهلية
118	اللباس في عصر الحضارة
120	ثياب المنادمة والتطيب والخضاب
121	المأوى: مساكن العرب
121	أساليب البناء في الإسلام

مقدمات تمهيدية

البحث في تمدن الأمة يتناول النظر فيما بلغت إليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من أسباب الحضارة وثمارها، ويدخل في ذلك تاريخ العلم والأدب والصناعة ولوازمها، كالمدارس والمكاتب والجمعيات، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت إليه من الرخاء، وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية، وذلك يستلزم وصف عادات الأمة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية وإسناد ذلك إلى أسبابه وبواعثه. غير أن النظر في هذا التمدن على هذه الصورة، لا يكون واضحاً وافياً إلا إذا تقدمه البحث عن حال تلك الأمة في بداوتها، وكيف تدرجت إلى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك، والبحث المشار إليه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الإسلامي، لأن فيه عواملَ خاصةً به لا وجود لها في تمدن الأمم الأخرى.

وبناء على ذلك لم نَرِ بدءاً من تصدير هذا الكتاب بمقدمات تمهيدية، نبسط فيها حال العرب قبل الإسلام ونسبتهم إلى التمدن وما تقدم الدعوة الإسلامية من أحوال تلك الأمة ... وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ ... وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم ... وكيف نشأت الدولة الإسلامية وارتقت من حالها الدينية في أيام الراشدين إلى حالها السياسية في أيام الأمويين فالعباسيين فالفاطميين فغيرهم.

فإذا فرغنا من ذلك، عمدنا إلى الكلام في سعة المملكة وتاريخ إدارتها ومناصبها وغير ذلك.

فنبداً بوصف حال العرب قبل الإسلام.

(١) العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الإفرنج أن العرب لا فضل لهم في تمدنهم الإسلامي، لأنهم أنشأوه على أنقاض التمدنين البيزنطي والفارسي، فالتمدن الإسلامي عندهم عبارة عن مزيج من دينك التمدنين، مع بعض التعديل، وأن العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة، لأنهم لم ينشئوا تمدناً من عند أنفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الإسلامية، وعندنا أن العرب أكثر الأمم استعداداً للحضارة وسياسة الملك، لا يقلون في ذلك عن سواهم من الأمم التي تمدنت قديماً أو حديثاً وإليك البيان.

(١-١) قدماء العرب

المشهور عند المؤرخين أن العرب يُقسمون إلى قسمين كبيرين العرب البائدة كعادٍ وثمود، والعرب الباقية، وأن العرب الباقية يُقسمون إلى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها، وهم ينتسبون إلى قحطان أو يقطان بن عامر وينتهي بأرفخشذ إلى سام، والإسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب، وينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل من امرأته هاجر، ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل ذلك السبب.

وقد بينا في كتابنا «العرب قبل الإسلام» ما كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرناً ... نعني دولة حمورابي واضع أقدم الشرائع الإنسانية التي وصلت إلينا، وقد أتينا من هناك بالأدلة التي ترجح كون دولته عربية، وبيننا أن تلك الأمة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية، وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية^١ وتفرع من الحمورابيين بعد ذهاب دولتهم دول العمالقة المختلفة، ومن فروعهم عاد وثمود والأنباط وعرب تدمر وغيرها.

ويلى الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية، وقد تمدنوا قبل العرب الإسماعيلية، لأن بلادهم أقرب إلى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء، فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور، وقد ظهوروا بعد الحمورابيين بعدة قرون، ذكرنا منهم الدول المعينية والسبئية والحميرية، أصحاب مأرب وصنعاء وغيرهما.

^١ انظر كتاب «العرب قبل الإسلام».

أما العرب الإسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل البادية، وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده، أشهرها دول القبائل صاحبة الوقائع التي جرت بينهم قبيل الإسلام والتي تعرف بأيام العرب.

ثم إن العرب ليس في أرومتهم ما يمنع استعدادهم للحضارة، لأنهم إخوان الآشوريين والكلدانيين والفينيقيين ولهم استعدادهم وأهليتهم ... فالذين أقاموا منهم في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم، والمقيمون في جزيرة أكثر بقاعها جرداء لا أنهر فيها ولا جداول، وإنما يستقون من مياه المطر، قضوا قروناً في البداوة ... فلما أتيحت لهم الإقامة في البلاد الخصبة بعد الإسلام، لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن أولئك.

فالتمدن الإسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة فقد كان المعينيون والسبئيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب، لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين فكانت تجارات الهند تُحمل في البحر الهندي إلى بلاد اليمن وحضرموت، فيحملها أهل اليمن إلى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الأدوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب، وكذلك كان الإسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن ومواني بحر العرب إلى بلاد الشام.

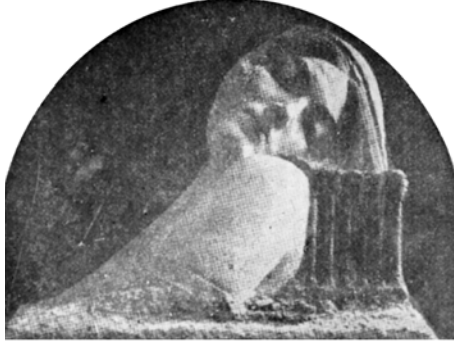
وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة — فضلاً عن توسط بلادهم — أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة في ذلك الحين، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً ومعنى، فالعربي والكلداني والآشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة، لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن، فكان العربي من حمير أو مضر إذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني أو الآشوري إلى ترجمان، وكذلك إذا يمّم فينيقية أو الحبشة فإنه يفهم لسان أهلها كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم، ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن إبراهيم الخليل فإنه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم إلى مترجم، وكذلك بنو إسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فإنهم قضوا أربعين سنة في أعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا إلى مترجم بينهم وبين أهلها.

والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد أكثرها رمالاً قاحلة، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال في بعض المواضع، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدنية، روى مؤرخو العرب



حمورابي ملك بابل واقفًا بين يدي إله الشمس.

البائدة عما خلفه العاديون من الأبنية الفخمة هناك ما نعهده من الخرافات، لخروجه عن المؤلف عندنا، مثل حديثهم عن مدينة إرم ذات العماد التي زعموا «أن شداد بن عاد بناها في الأحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة، فجعل جدرانها من الجزء اليماني وغشاها بصفائح الفضة المموهة بالذهب، وبنى داخل المدينة مائة ألف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت، طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهارًا وعمل فيها جداول إلى تلك القصور، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت، إلى غير ذلك



زينوبيا (الزباء) ملكة تدمر.

مما يفوق طور الإمكان، لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها، فإنها تدل على أن بعض أبنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها أو أساطينها بالحجارة الكريمة، وهذا غاية ما يمكن أن يصل إليه البذخ والترف، ولا يكون ذلك إلا في إبان المدنية.

(٢-١) عرب اليمن

أما عرب اليمن القحطانية، فقد تمدنوا تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن، وأشهر دولهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان، وتاريخ هذه الدول أقرب عهداً من عاد وثمود، وقد اكتشف البحاثن بعض آثارهم، وأكثر ما اكتشفوه أنقاض بعض الأبنية في صنعاء وعدن وحضرموت، فاستخرجوا منها ألواحاً مكتوبة بالقلم الحميري «المسند» أكثرها دعاء ديني أو نحوه، ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول إليها، ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن أبهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الإسلام، لكن أخبارها كانت إلى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الأشوريين والمصريين والفينيقيين، فقد أنشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة وأتقنوا الزراعة، وقد ذكرهم هيردوتس الرحالة اليوناني في القرن

الخامس قبل الميلاد فقال «إن في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدار صيني واللاذن» وعدها من أغنى ممالك العالم في زمانه.

ض	⊖	ا	⋈
ط	⊖	ب	⋈⋈⋈⋈⋈
ظ	⋈⋈⋈	ت	××
ع	⊖	ث	⋈⋈
غ	⋈⋈⋈⋈⋈⋈	ج	⋈⋈
ف	⊖⊖	ح	⋈⋈
ق	⊖	خ	⋈⋈⋈⋈⋈
ك	⋈⋈⋈⋈	د	⋈⋈⋈⋈
ل	⋈⋈⋈⋈	ذ	⋈⋈⋈⋈⋈
م	⋈⋈⋈⋈⋈⋈	ر	⋈⋈⋈⋈
ن	⋈⋈⋈	ز	⋈⋈⋈
و	⊖⊖⊖	س	⋈⋈⋈⋈
هـ	⋈⋈⋈	ش	⋈⋈⋈⋈
ي	⊖	ص	⋈⋈⋈

الحروف الحميرية «المسند» وما يقابلها في العربية.

ومن آثار العرب في اليمن، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الأبنية، نعني بذلك السد المشهور بسد مأرب، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي «باشا» القناطر الخيرية في رأس الدلتا، وكما بنت الحكومة المصرية خزان أسوان.

سد مأرب

وسد مأرب هذا، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما، فيرتفع ويروي السفحين إلى أعلاه، جعلوا فيه شعباً وأقنية وساقوا إليه سبعين وادياً تصب مياهها فيه، فمثل هذا السد العظيم يحتاج إلى مهارة في الهندسة وهمة عالية، وهو أقدم خزان للماء ذكره التاريخ، وعرب اليمن أسبق الأمم إلى هذه الهندسة، وكان بناؤه متيناً صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون، ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسوا بقرب تدمره أخذوا في المهجرة من جواره، في أواسط القرن الثاني للميلاد، وتفرقوا في البلاد، والمشهور عند العرب أن الغساسنة في الشام، والمناذرة في العراق، والأوس في المدينة، والأزد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم «أي من عرب الجنوب»، ثم انفجر السد وطغت المياه فهاجر من بقي، وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم.

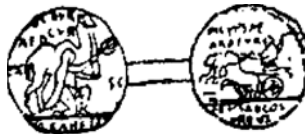
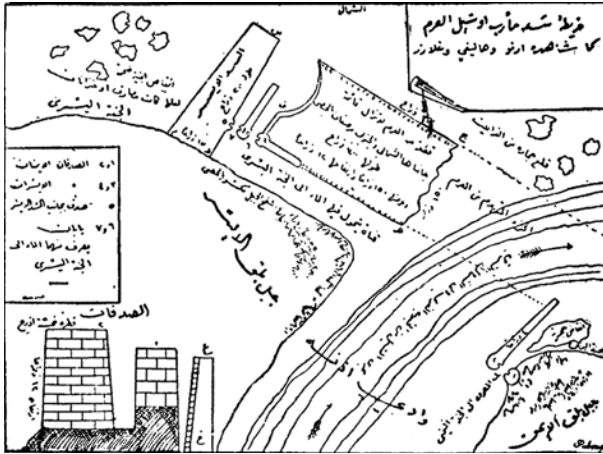
وذكر إسترابون الرحالة اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد، أن مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة، سقوف أبنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة، وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول، وذلك يهون علينا سماع ما ذكره العرب عن إرم ذات العماد.

وفي اعتقادنا أنهم لو بحثوا في أنقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على أحافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة، وكما كشفت آثار وادي الفرات عن أخبار ملوك آشور وبابل، ولا يتأتى ذلك إلا بإرسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب.

(١-٣) الأنباط

ومن الأمم العربية التي تمدنت قبل الإسلام الأنباط أصحاب مدينة بطرا **Petra** بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب إلى الحجاز، وكان الأنباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب، وقد عاصروا الرومان في إبان مجدهم وكثيراً ما كانوا عوناً لبعض قوادهم في الحروب حتى تأتى لأحدهم وهو الملك الحارث الثالث أن يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الأول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال، وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الروماني هناك، وما زالت

دولة الأنباط سائدة إلى أوائل القرن الثاني للميلاد فدخلت في حوزة الروم وضاعت فيها ولا تزال أنقاضها في بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية.^٢



نقود الحارث الثالث وأسكاوروس.

ومن الأمم العربية التي تمدنت قديماً العمالقة، وقد تفرعوا من الحموريين على ما نظن وهم مشهورون بشدة البطش، ومنهم الملوك والرعاة الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون، غير مستعمرات العرب في مشارف الشام والعراق ومن مدنهم بصرى في حوران للغساسنة، والحيرة في العراق للمنادرة ...

^٢ جرجي زيدان العرب قبل الإسلام.

أيقال بعد ما تقدم أن العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة؟

(٤-١) التمدنان اليوناني والفارسي



مسكوكات نبطية.

على أننا لا ننكر أن التمدن الإسلامي قام على أنقاض التمدنين اليوناني والفارسي، لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى ... لأن اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة، حتى صار تمدناً معروفاً بهم، فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلاً

طفيفاً جداً، وكذلك الفرس فإن تمدنهم قام على أنقاض تمدن الآشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضاً عن اليونان.

على أن تلك الأمم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة إلا بعد أجيال متوالية، أما العرب فلم يمتد على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار عقولهم، وفي القرنين الثاني والثالث الهجري ملأوا الأرض علماً وأدباً ومدنية وحضارة.

وزد على ذلك أن الجرمان الذي نشأ منهم فيما بعد عدد من أعظم دول الأرض، قضوا أجيالاً متطاولة وهم يغيرون على الدولة الرومانية قبل الإسلام وبعده، وفتحوا كثيراً من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم في القرون الأولى غير النهب والقتل، واعتبر ذلك في غزوات الهون في القرن الخامس للميلاد، فإنهم اكتسحوا شمالي الدولة الرومانية وشرقيها، وفتحوا المجر ورومانيا وسائر شرق أوروبا، وأنشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مائتي سنة — كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق — لكن الهون لم ينشئوا تمدناً ولا خلفوا حضارة مع أنهم أقرب إلى مركز التمدن اليوناني من العرب. وغزا الصقالبة في القرن السادس للميلاد الدولة الرومانية الشرقية حتى طرقت أبواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدّنوا. ألا يدل ذلك على أن في العرب استعداداً خاصاً للحضارة؟

(٢) الحجاز في العصر الجاهلي

لجاهلية العرب عصران الجاهلية الأولى في عهود من ذكرنا من أمم العرب البائدة ومن خلفهم في اليمن وغيرها، والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولا سيما الحجاز قبل الإسلام بعدة قرون، وللحجاز شأن خاص في ذلك، ففي الجاهلية الثانية تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شماليها وظل أهل الحجاز في وأسطها على بداوتهم، لجذب أرضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة، لتوسطها في الصحراء ووعورة المسالك إليها، حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبله، وإيليبوس غالوس على عهد يوليوس قيصر في القرن الأول للميلاد، وامتنت أيضاً على ملوك الفرس في إبان دولتهم فآل امتناعهم هذا إلى اطمئنانهم وسكونهم، والإنسان لا ينزع إلى الإصلاح إلا مضطراً، بخطر أو نحوه، ولكنه مفضوّر على الأثرة والمنافسة، فقامت المنازعات بين العرب أنفسهم وأصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب ... فشغلهم ذلك عن الالتفات إلى المصادر الأخرى.

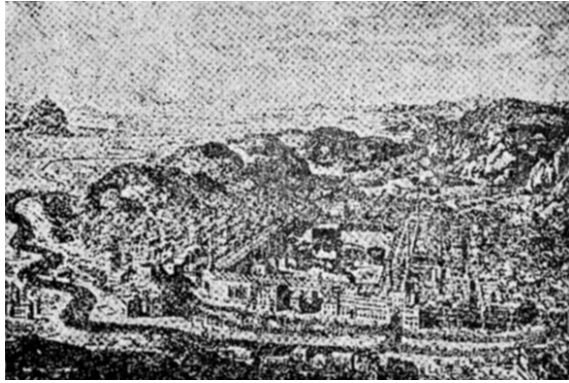
على أنهم كانوا على جاهليتهم أهل أنفة وذمام وكرم ووفاء، مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم.

قضى أهل الحجاز في جاهليتهم الثانية قرونًا لا يعلم مقدارها إلا الله وهم في حال البداوة، إلا ما اقتبسوه ممن هاجر إليهم من جالية اليمن جيرانهم، أو من لجأ إلى بلادهم من اليهود، وخصوصًا في القرون الأخيرة قبل الميلاد والأولى بعده، فزارًا من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولا سيما بعد خراب بيت المقدس، وربما هاجر إليهم أيضًا قوم من الأنباط وهم أهل تمدن كما تقدم، فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان بهم، أما اليهود فكانوا يقيمون في يثرب على الأكثر.

(١-٢) مكة

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها، فاقتبس العرب منهم أمورًا كثيرة كانوا يجهلون، كالحج والذبايح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد ونحوها، وعلموهم بعض أقاصيص التوراة وفصولًا من التلمود، ونشروا بينهم كثيرًا من تقاليدهم وعاداتهم، وقد يكون بعض تلك الآداب أو الطقوس متسلسلاً إليهم مما كان عند أسلافهم في الجاهلية الأولى، فضلاً عما هاجر إلى الحجاز من أهل اليمن وغيرهم من الأمم التي كانت تحيط بجزيرة العرب، كالكلدان والمصريين والأحباش وغيرهم، فأصبح أهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين أهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرُّحَّلُ، وأهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر.

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها محجاً يؤمه الناس من أقاصي البلاد لزيارة الكعبة، فأصبحت بتوالي الأجيال مركزاً للتجارة لمن يتوافد إليها من الحجاج في المواسم كل عام، فطمحت إليها أنظار أهل السلطة من القبائل القوية، وكانت في أوائل أزمانها في حوزة الحجازيين بني إسماعيل وهم سدنة الكعبة أي حجابها، ثم نزح إليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد وتسلبوا عليها، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن، وكان الإسماعيليون (أو العدنانيون)



مكة ومسجدها وفي وسطه الكعبة في القرن الثامن عشر للميلاد.

يومئذ ضعافاً لا يقوون عليهم، ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة أجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم، وقوي أمر العدنانية، فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش.

قصي بن كلاب والكعبة

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب بن مرة، وكان حكيماً عاقلاً ذا سياسة ودهاء، فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة)، طمعا في السدانة، فولد له أولاد اعتز بهم، واشتغل بالتجارة حتى صار غنياً، ولما اقترب أجل حميه أوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب وإغلاقه — وهو عمل سادن البيت عندهم — فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش أو أبو غبشان، وكان ضعيفاً فابتاع قصي ذاك المنصب منه بزق من الخمر.^٣

^٣ ابن الأثير ج ٢ ص ٩.

فشق ذلك على خزاعة، وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا إلى الصلح والتحكيم، فحكموا بينهم رجلاً من قريش ففضى لقصي، وما زالت سدانة الكعبة في قريش حتى جاء الإسلام.

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة، فجمع قصي أهله من قريش في مكة، وحولها فملكوه عليهم، فقسم مكة أرباعاً بينهم، فبنوا المساكن وعمرت بهم وأصبح هو سيدهم في كل شيء، وخلفه بعده ابنه عبد مناف، وكان في جملة أولاد عبد مناف ولدان هاشم، وعبد شمس، فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهما ثم انفرد بها هاشم، وكان لعبد شمس ابن اسمه أمية (جد بني أمية) حسد عمه على الرئاسة، فآل ذلك إلى المنافرة، فكره هاشم أن ينافر ابن أخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة، فرضي أمية وجعل الكاهن الخزاعي حكماً بينهما، فاستفتياه ففضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشرين سنة على حسب الشرط، وكانت تلك أول عداوة وقعت بين هاشم وأمие وتوارثها أعقابهما إلى أيام الإسلام، وتولى الكعبة بعد هاشم ابنة عبد المطلب جد النبي صاحب الشريعة الإسلامية.

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني إسرائيل، ولهم مثل امتيازاتهم، وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية، وكانوا لا يؤدون إتاوة ولا يتكلفون دفاعاً ... يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد ... وكانوا يتزوجون من أية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك، وكانوا لا يزوجون أحداً إلا اشتراطوا عليه أن يكون متحمساً لدينهم — «التحمس التشدد في الدين»^٤ — وقد فرضوا فروضاً ألزموا الناس باتباعها.

(٣) حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالأخص قريش، لأن منها ظهر النبي محمد ﷺ. والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر أهل البادية، فإن المناصب التي تعد عند أهل العالم المتمدن بالعشرات، تجتمع عندهم في شخص شيخ القبيلة، فالشيخ هو الملك،

^٤ معجم البلدان، ص ٦٢٠ ج ٤.

والقاضي، وصاحب بيت المال، وقائد الجند وكل شيء، وكانوا يختارون لهذه الرئاسة أقواهم عقلاً وأكثرهم دهاءً وسياسة بلا تواطؤ أو تعمد، وإذا تساوى عدة منهم في القوة والدهاء اختاروا أكبرهم سنًا وأوسعهم جاهًا، وإذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا إلى من يرأسهم جميعًا، اقترعوا بين أهل الرئاسة، فمن خرج سهمه رأسوه، كبيرًا كان أو صغيرًا.

ذلك كان شأن العرب الرحل أهل الغزو والسطو، أما الحضر وهم أهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة، ولما أفضت السدانة إلى قريش، صارت السيادة لهم في كل شيء.

(١-٣) الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضرًا أهل تجارة، وتجارتهم قائم أكثرها على الحجاج الذين يردون مكة في المراسم، فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج، وفي جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة، أنه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها، تأتي في المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الأصنام في الكعبة على ثلاثمائة صنم وفيها الكبير والصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات.

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع إليها الناس في الأشهر الحرم، فينصبون خيامهم بين نخيله، يبيعون ويشترون ويتبادلون، وهي سوق عكاظ المشهورة، وكان للعرب أسواق أخرى في أماكن أخرى، ولكن هذه كان يجتمع فيها أهل البلد المجاور لها ... وأما عكاظ فكان يتوافد إليها العرب من كل جهة، وزادت قريش في بواعث الاجتماع إليها بأنهم جعلوها مسرحًا للأدب والشعر، تتسابق فيه القبائل إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء، فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون، ومن كان له أسير سعى في فدائه، وكان لعكاظ في أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من الخلاف أو نحوه، وكان الغالب أن يكون ذلك الحاكم من بني تميم، ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ، وقفوا في عرفة، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون إلى موطنهم.

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بصرى في حوران بضواحي الشام، فكانت مكة وسط عقد التجارة، بين اليمن والشام، وكانت طرق التجارة خطيرة، إلا عليهم، لحفظ العرب حرماتهم، لأنهم ولاية الكعبة، وكانوا كثيرًا ما يسافرون إلى بلاد فارس أو إلى الشام، فيأتون من الشام بالأنسجة والأطعمة، ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما.

فالكعبة كانت مصدر رزق أهل مكة، ولولاها لما استطاعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع، على أن أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في أطراف العراق والشام، جعلتهم أوسع العرب علمًا، وأكثرهم خبرة ودراية، ونظرًا لعلاقة الكعبة بأسباب معاشهم بذلوا العناية في القيام على شؤونها، وسهلوا على الناس القدوم إليها، فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حرماً لا يجوز فيه القتال، وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الرفادة وبعضهم غير ذلك، وما زالت تلك المناصب تتعدد حتى أصبحت قبيل الإسلام بضعة عشر منصباً، هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها، وأشهرها عشرة أبطن هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم، لكل من هذه البطون منصب أو أكثر، وإليك هي:

مناصب القرشيين

(١) **السدانة:** وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة ويبيده مفتاحها ... يفتح بابها للناس ويقفله، ولها المقام الأول عندهم، ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب، وقد جعل صاحب «العقد الفريد» السدانة والحجابة منصبتين.

(٢) **السقاية:** وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشئ حياضاً من الجلد، توضع في فناء الكعبة تنقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل في المزود والقرب، وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم وكانت السقاية في بني هاشم.

(٣) **الرفادة:** وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكله الفقراء، وأول من أشار بالرفادة قصي المتقدم ذكره، وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم.

(٤) **الرأية:** كانت لقريش رأية تسمى «العقاب» فكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها، فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها وكانت الرأية لبني عبد الدار.

(٥) **القيادة:** وهي إمارة الركب، وصاحبها يسير أمام الركب في خروجهم للقتال أو التجارة، وكانت القيادة في بني أمية، وصاحبها منهم في أول الإسلام أبو سفيان والد معاوية.

(٦) **الأشناق:** وهي الديات والمغرم وصاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه فيه، وكانت لتيم.

(٧) **القبة:** هي قبة كانوا إذا خرجوا إلى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به، أشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية.

(٨) **الأعنة:** وهي أعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في الحرب.

(٩) **الندوة:** وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبار قريش للمشاورة، ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره، وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة إلا في تلك الدار، ولا يعقد لواء الحرب إلا فيها ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده، وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم إذا بلغن الحلم، وكانت دار الندوة في أيدي بني عبد الدار.

(١٠) **المشورة:** وصاحبها يستشار في الأمور الهامة، وكانت في بني أسد، فلم تكن قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليهم.

(١١) **السفارة:** هي أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب، وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به، وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل أن يسلم.

(١٢) **الأيصار:** وهي الأزلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها إذا هموا بأمر عام من سفر أو قتال، فكانوا يستقسمون بالأزلام بما يشبه سحب القرعة عندنا، وكان يتولى ذلك رجل من بني جُمح.

(١٣) **الحكومة:** وهي عندهم الفصل بين الناس إذا اختلفوا، وتشبه القضاء في الإسلام أو التحكيم.

(١٤) **الأموال المحجرة:** وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم، وفيها النقد والحلي وربما أشبهت بيت المال، وكانت ولايتها في بني سهم.

(١٥) **العمارة:** ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته.^٥

فترى مما تقدم أن بعض هذه المناصب لا أهمية لها على الإطلاق، ولكن يظهر أنهم أكثرها ليرضوا كل بطون قريش، خوفاً من التحاسد وإجلالاً لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها.

وترى أيضاً أنهم جمعوا بها بين السياسة والدين والإدارة والحرب، ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية، أو هو نوع من الحكومة لا ترى له شبيهاً بين الأمم المتمدنة، وربما أشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه، إلا أن للشورى رئيساً كالملك أو السلطان أو رئيس الجمهورية وليس في هذه شيء من ذلك إلا ما قد يكون لصاحب دار الندوة أو السدانة من الرياسة.

(٢-٣) النهضة العربية قبل الإسلام

إذا تدبرت تاريخ العرب قبل الإسلام على غموضه وإبهامه، تبين لك أمور تدعو إلى الاعتبار وإعمال الفكرة، منها أن العرب على اختلاف القبائل والبطون، قلما نبغ فيهم شاعر أو خطيب أو حكيم أو كاهن في عصورهم الجاهلية الثانية إلا بعد دخولهم في القرن الأول قبل الهجرة، ولا يعترض بضياح أخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ، فقد حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك يقرون متطاولة، وذكروا بضعة شعراء ظهوروا قبل القرن الأول المذكور، فلو نبغ غيرهم من الشعراء أو الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعاً تاماً، وأما تاريخهم في جاهليتهم الأولى وهم في بابل أو اليمن، فلم يصلنا منه ما يشفي الغليل.

فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الأول قبل الإسلام دفعة واحدة هو ما عبرنا عنه بالنهضة العربية أو الأدبية، على أنها لم تكن تقتصر على الأدب والشعر ولكنها شملت الدين أيضاً، فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الأفكار واختلطت الاعتقادات، وأصبح أهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا إلى من يتوسلون، يذبح أحدهم للصنم ويدعو إلى الله، وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الأصنام، وفيهم الموحدون

^٥ العقد الفريد ٢٨ ج ١.

والمشركون وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة، وقد ظهر في أثناء ذلك الاضطراب من حرّم الخمر ورفض الأصنام، وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة، وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الأذهان إلى أمر الدين والتفكير في عواقب الأعمال.

سبب تلك النهضة

بينما في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض وأهليتهم للتمدن، لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة خاطر، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلا مع بُعدهم عن العالم المتمدن، والإنسان تظهر قواه بالاحتكاك أو الضغط شأن القوى الطبيعية، فالفرد لا يسعى في طلب العلا غالباً إلا إذا عضه الفقر فأحوجه الرزق أو نافسه منافس في أمر يبعث إلى الاستثارية.

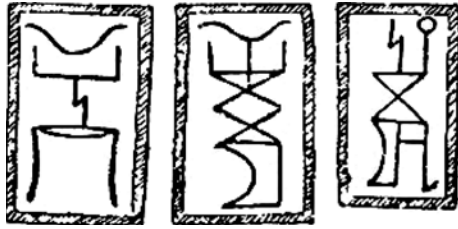
أما الأمم فإنما يدعوها إلى طلب العلا الحروب الخارجية أو الثورات الداخلية، والأولى أكثر تأثيراً لما يرافقها غالباً من الاختلاط بالأمم الأخرى، وفي ذلك من الاحتكاك ما يدعو إلى الاقتباس والمنافسة، وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك.

غزو الحبشة

ومن هذا القبيل ما أصاب العرب في القرنين الأخيرين قبل الإسلام، كان عرب الحجاز قبل الإسلام يدينون بالطاعة لدولة حمير اليمنية، وكانوا يؤدون لها الإتاوة، ثم غزا الأحباش اليمن في القرن الرابع للميلاد وبعده، وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم في قلوب العدنانيين.

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار، فاتفق أن الحميريين شددوا في طلب الإتاوة في سنة جذب وضيق فضايق العدنانيون ذرعاً وتحذثوا في الخروج عن الطاعة، وأول من فعل ذلك قبيلة ربيعة في أواخر القرن المذكور واقتدى بها غيرها^٦ فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم.

^٦ العرب قبل الإسلام ٢٢٣ ج ١.



خرطوش بحرف المسند ... فيه أسماء أبرهة وأراحميس وزبيمان من قواد الأحباش في اليمن.

ثم غزا الأحباش الحجاز في أواسط القرن السادس للميلاد، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة، وكانت سدانتها يومئذ إلى عبد المطلب جد النبي فجاء الأحباش بأفياهم ورجالهم وعدتهم، وأهل مكة لم يتعودوا شيئاً من ذلك، لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في نفوس القبائل وغيرهم، فلما رأوا الأحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر، وأحسوا بافتقارهم إلى الاتحاد لدفع الأجنب عنهم، فدفعوا الأحباش وقد تنبّهت أذهانهم وأخذت مواهبهم في الظهور.

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم أنهم جعلوا يؤرخون به وهو ما يسمونه عام الفيل، وكانوا قبل ذلك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم، أو هشام بن المغيرة،^٧ ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الأدبية أو الدينية، لكنها أنتجت رجالاً نبغوا في السياسة والقيادة والإدارة وكانوا من أهم العوامل تأثيراً في سرعة انتشار الإسلام، كما أنتجت الثورة الفرنسية بونابرت ورجاله.

ومهما يكن من السبب فإن بلاد العرب كانت قبل الإسلام في نهضة أدبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها، ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية في الغالب، استعداداً لقبولها.

^٧ الأغاني ١١ ج ١٥.

الدولة الإسلامية ... كيف نشأت؟

فرغنا من المقدمات التمهيدية في حال بلاد العرب قبل الإسلام، فنتقدم بعد ذلك إلى الكلام في نشوء الدولة الإسلامية وكيف تكونت وتطورت، حتى صارت على ما عرفناه منها في أوج التمدن الإسلامي.

(١) الدعوة الإسلامية

(١-١) نشأة النبي الأولى

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلامية ودعا الناس إلى التوحيد وأظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعون سنة، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته، وإنما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الأسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها.

ولد صاحب الدعوة الإسلامية وقد مات أبوه، وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع في قريش، لكنه توفي بعد سنتين، فكفله عمه أبو طالب وكان وجيهاً محترماً، فشب محمد في بيته كأحد أولاده، وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش، فكان إذا خرج في تجارة اصطحبه في أسفاره، فاشتهر منذ حدثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالأمين واشتهر في مكة بهذا اللقب، فعرفت بأمره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت إليه في الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت إعجاباً به، فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها فاتسعت حالة وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه.

(٢-١) الدعوة

ولما بلغ الأربعين من عمره مال إلى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى إلى الجبال والشعاب كما يفعل النساك، وأول ما ابتدئ به «الرؤيا الصالحة»، وفي رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلاً بنفسه في غار حراء بجبل النور على ثلاثة أميال من مكة،^١ فنزل عليه الوحي وقرأ عليه أول سورة من سور القرآن ودعاه إلى أن يرددها وراءه، فرددها، وأصابه الروح، وأسرع إلى زوجته خديجة وأنبأها بما وقع وقال إن الملك أمره أن يقول «اقرأ باسم ربك الذي خلق» الآية، فقرأها، وإنه خرج إلى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل» فذعر وأسرع إلى خديجة فأخبرها، وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والإنجيل وسمع أقوالهم، وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات، فذهبت إليه وأخبرته بما كان فقال «والذي نفس ورقة بيده، لئن صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه نبي هذه الأمة».

فرجعت خديجة إليه وأخبرته بقول ورقة فاطمأن باله، ولكنه لم يرَ إظهار دعوته، لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش، لما فيها من تعيب آلهم وتحقير أصنامهم، وفي ذهاب تلك الأصنام ذهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم، ولم يكن من الجهة الأخرى يتوقع إذا أنبأهم برسالته أنهم يصدقونه فعمد إلى بث دعوته سرّاً بين أقرب الناس إليه، قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وأبو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم، فهم بدعوة الناس جهاراً وبدا بعشيرته الأقربين فكلف ابن عمه علياً أن يصنع لهم طعاماً يدعو أهله إليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلاً، فدعاهم إلى بيت أبيه أبي طالب، فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سرّاً واستخفوا بها، فلما هم بالكلام علموا أنه سيدعوهم إلى ترك الأصنام وعبادة الله فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً.

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال «ما أعلم أن إنساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما

^١ ابن الأثير ٢١ ج ٢.

جئتمكم به، فقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى في هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟^٢ فظلوا ساكتين وكان سكوتهم استخفافاً، فتقدم على ابن عمه وقال «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليهم» فأخذ النبي برقبته وقال «هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب «قد أملك أن تسمع لابنك وتطيعه» ثم انصرفوا.

(٣-١) النبي وقريش

على أن استخفافهم هذا لم يقعه عن عزمه ولا أبعدته عن قومه، فبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد، تهيئاً وحذراً جاهر بسب الأصنام ونسب أهله وآباءهم إلى الكفر والضلال، فلما علموا بمجاهرته بسب الأصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا أذاه، لكنهم لم يروا سبيلاً إلى ذلك وهو في كفالة عمه أبي طالب ... فجاءوا عمه وفيهم أبو سفيان فقالوا له «يا أبا طالب إن ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلل آباءنا فانه عنا أو خلّ بيننا وبينه» فردهم أبو طالب ردّاً حسناً ووعدهم خيراً.

ثم رأوه لا يزال ماضياً في سب ألتهم فعادوا إلى أبي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له «إن لم تنه ابن أخيك وإلا نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين» فعظم ذلك على أبي طالب وأدرك عاقبة الأمر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه «يا ابن أخى إن قومك قالوا كذا وكذا» فظن أن عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال «يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر» وبكى وهم بالانصراف فناداه عمه وقال له «قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبداً».

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيب على مهل، وقد أسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الإسلامي منهم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحزمة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب، وكان لإسلام هذين الأخيرين وقع حسن عند النبي، لأنهما كانا من أهل الوجاهة والقوة.

أما سائر أعمامه وأهله فلما يئسوا من وساطة عمه أبي طالب، رأوا أن يحتالوا في استرضائه بالحسنى، فبعثوا إليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة ... فجاء فاستقبلوه بالترحاب

^٢ أبو الفداء ١١٩ ج ١.

وقالوا له «يا محمد إنا قد بعثنا إليك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفقرت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك».

فقال لهم «ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فلما لم يروا سبيلاً إليه جعلوا يعذبون الذين أسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب، حتى إذا اشتد أذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والإهانة، أشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم أن يخرجوا من مكة إلى أرض الحبشة، فهاجروا إليها تبعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والأولاد، وهي الهجرة الأولى، ولا يخفى ما تقتضيه الأسفار من مكة إلى الحبشة من المشقة، لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الأزمان مع ما حملوه معهم من النساء والأطفال، فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالإسلام. ويليق بنا الوقوف هنيئة في هذا المقام لإبداء ما ارتسم في مخيلتنا من أمر هذه الدعوة على أثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول:

هل كان يعتقد صدق رسالته؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين أن صاحب الشريعة الإسلامية إنما قام بهذه الدعوة، طمعاً في السيادة ورغبة في ملاذ الدنيا.

وأما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على أنه إنما قام بها عن صدق وإخلاص، فلم يدع الناس إلى الإسلام إلا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وأن الله أرسله لبث تلك الدعوة، ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب، وقد رأيت أنه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام أهل

مكة كافة، وأهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء، لما اكتسبه من أسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه أهل مكة العداء وساموه أنواع العذاب وأهانوه، حتى نقموا على بني هاشم، لأنهم أهلهم فتعاقدوا أن لا يناكحهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها في جوف الكعبة، فاضطر بنو هاشم أن ينفروا إلى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة إلا خفية — إلا من جاهرة بعداوته للمسلمين كأبي لهب ونحوه.

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت إلا لاحتمائه بعمه أبي طالب، لأننا رأيناه بعد وفاة عمه أكثر ثباتاً منه في حياته، مع أن الناس أصبحوا أكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، فتتابعت بموتهم المصائب عليه، واستبدت به قريش ولا سيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط، لأنهم كانوا جيرانه بمنزله، فكانوا يلقون الأذى في طعامه، ويرمون به وقت صلاته.

حتى إذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم لجأ إلى الطائف، لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته، فلم يلق إلا الإعراض والأذى، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته، ولم يكتفِ أهل الطائف بإعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا أمره إلى الله، وعاد إلى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزمته، فلقى قومه هناك وهم أشد وطأة عليه مما كانوا من قبل.

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبتهم وبعيدهم مع علمه أنه إذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً وإكراماً كما صرحوا له جهاراً، ولكنه لم يكثر لشيء من ذلك ولا أهمه أمر الدنيا.

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وأنه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله.

(٤-١) أهل المدينة والدعوة

ولما يؤس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في أيام الحج لعله يلقي من يصغي إليه وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله، وخصوصاً عمه أبو لهب فإنه كان إذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الإسلام اعترضه وقال للناس «إنما يدعوكم أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه»، ولكن ذلك لم يقعه من دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم، حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الإسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة.

ولعل السبب في سرعة انتشار الإسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة، وليس فيهم من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الأصنام، بل هم يفضلون إبطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصاً إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج إليها الناس بدلاً من حجه إلى مكة واليهود كما لا يخفى أهل النظر في التجارة وأصحاب فراسة في أبواب الكسب، ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد، لتباعدهما في الأنساب، لأن أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة من القحطانية عرب اليمن، فنشطه أهل يثرب ودعوه إليهم على أن ينصروه، فهاجر إليهم سنة ٦٢٢ للميلاد، وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم «المهاجرون»، تمييزاً لهم عن الفئة الأخرى من الصحابة وهم «الأنصار» أهل يثرب، سمو بذلك، لأنهم نصروا النبي في مدينتهم، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم إلى الآن، وقد سميت يثرب — عندما عم الإسلام أهلها — بمدينة النبي، تم اختصار إلى المدينة، ولزمها هذا الاسم إلى الآن.

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيماً فاشتد أزهرهم وتحولوا إلى محاربة أهل مكة، فجعلوا يناوئونهم في أثناء مرورهم بتجارعتهم بين الشام ومكة وفي أماكن أخرى، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هي الغزوات المشهورة، أعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الأخرى، حتى أخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة وأسلم القرشيون كافة، فوجه النبي التفاته إلى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوههم إلى الإسلام كما سيأتي.

الروم والفرس عند ظهور الإسلام

(١) الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية، وظلت رومية كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن، وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله، وفي مايو سنة ٣٣٠ أصبح انقسام الدولة الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، حقيقة واقعة بعد أن كان مجرد تقسيم إداري منذ سنة ٢٩٥ ميلادية، ذلك أن قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة، وتولى هو القسم الشرقي واتخذ بيزانطيوم عاصمة له، وسماها القسطنطينية، هياً لها كل مقومات العواصم الرومانية، حتى لقد نقل إليها أعداداً من سكان روما وأعضاء مجلس الشيوخ.

وبعد وفاته سنة ٣٣٧م اختلف أولاده الثلاثة، ثم انفرد بالأمر أحدهم وهو قسطنطيوس، ولكنه لم يستطع الاستمرار، وصار الأمر إلى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠م، فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٢٦٤م، ثم توفي هذا بعد بضعة أشهر، فانتخب الرومان إمبراطوراً اسمه فالنتيان، وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس إمبراطوراً على رومية، وتم انفصال المملكة الرومانية على أثر ذلك إلى مملكتين إحداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والأخرى غربية عاصمتها رومية، وكانت الأولى أسعد حظاً وأطول عمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقي من الدولة الرومانية القديمة.

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد غير ثابتة، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة أنها كانت تنتهي في الغرب بالبحر الأدرياتي وفي الشرق بصفاف دجلة، وتمتد حدودها الشمالية إلى جنوبي ما يعرف اليوم بروسيا، بما في ذلك

شبه جزيرة القرم، وتنتهي في الجنوب إلى بلاد النوبة، وأرقى عصور هذه الدولة بعد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧-٥٦٥م) تولاها ٣٧ سنة، قضى الخمس الأولى منها في محاربة الفرس الساسانية، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها «معاهدة الصلح الدائم» لكنها لم تدم، ومن حسن حظ هذا الإمبراطور أنه رزق بقائدين من أشهر قواد العصور الوسطى هما بليزاريوس ونارسييس فتحا له إيطاليا ورفعوا أعلامه فوق أسوار روما شمالي إفريقية وغيرها، وكانا عوناً له في سائر فتوحه وساعده الأقوى في توسيع نطاق مملكته.

(٢) الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد، وسببها التنازع على السيادة في العالم، لأنهما كانتا أعظم دول الأرض، في تلك العصور، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى، واتصلت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الكبير ثم اتصلت في عصور الرومان إلى أيام الإسلام.

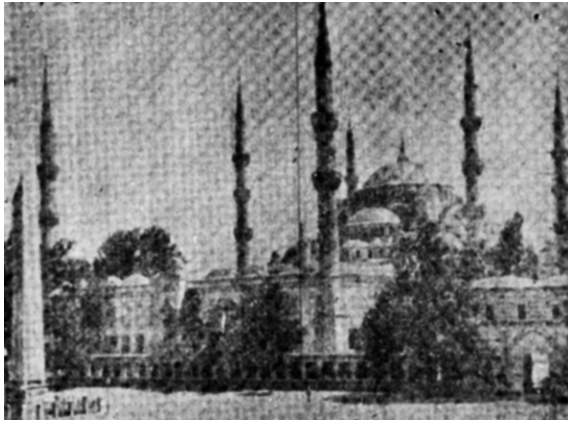


القائد بليزاريوس يقود جنوده في إحدى المعارك ضد الفرس.

وأفضى عرش الفرس في أيام جستنيان المذكور إلى كسرى أنوشروان المشهور بالعدل، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله، ففتح سوريا وأحرق أنطاكية ونهب

آسيا الصغرى، فبعث جستنيان إليه بليزاريوس فحاربه وردّه على أعقابّه، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ إلى ٥٦١م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضي فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار، وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب.

وللإمبراطور جستنيان ذكر مجيد في تاريخ الدولة البيزنطية، بسبب اتساع حدودها على أيامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية، وبسبب ما قام به من أعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ، منها اجتهاده في تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة وأشهرها المجموعة المعروفة إلى اليوم بمدونة جستنيان التي كانت أساساً لما وضع بعدها من القوانين في أوروبا إلى اليوم، وقد أدخل صناعة الحرير إلى أوروبا وبنى الكنائس والمعازل والقصور، وأشهر ما يذكر به كنيسة أيا صوفيا، التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم.



كنيسة أيا صوفيا التي بناها جستنيان، وهي الآن جامع.

ولكن الدولة المطلقة إنما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها فإن كان عظيماً عظمت أو كان حقيراً حقرت، فلما توفي جستنيان خلفه أناس لا يليقون

بالمك فلم تعد تعرف السعادة بعده — خلفه ابن أخيه جستين الثاني ثم طيباريوس ثم الإمبراطور موريس «موريقوس» وقد ضعف أمر الدولة، فأراد هذا الإمبراطور أن يقويها بفتح الشرق فنأصب الفرس وحاربه سابع سنين، وقد توفي كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩، وخلفه ابنه هرمز الرابع، وكان عاتياً فثار عليه رعاياه، فاشتغل بإخماد ثورتهم، والروم يوغلون في بلاده من العراق، والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقيض لها الله قائداً شهيراً يعرف ببهرام فحارب العدوين وأنقذ البلاد منهما، فمال الفرس إليه فأنزلوا هرمز وسمّلوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى أبرويز، فلم يقبل بهرام، وأذله ففر أبرويز إلى القسطنطينية واستنجد الإمبراطور موريس، فأنجده بجيش تغلب به على بهرام واستعاد الملك، فعرف أبرويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم إلى وفاة موريس.

أما هذا الأخير فقد مات مقتولاً سنة ٦٠٢ م وخلفه الإمبراطور فوقاس، وكان فوقاس جلفاً جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه، وكان من جملة ولاة الأمور يومئذٍ وال على إفريقية اسمه هراكليوس «هرقل» فاستجده أهل القسطنطينية، فأنفذ إليهم عمارة بحرية تحمل جيشاً يقوده ابنه، وكان يسمى هرقل أيضاً، فقتل فوقاس وتربع في دست الإمبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي أيامه ظهر الإسلام.

(٣) بين الروم والفرس

ورأى أبرويز باباً لمناوأة الروم فادعى أنه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ م وناصره يهودها على البيزنطيين ففتحها وفتح مصر واستولى على أنطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين، ثم أباح لجنده نهب أورشليم «بيت المقدس» فنهبها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي إلى بلادهم، وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس، وأرسلوا جنداً آخر إلى آسيا الصغرى ففتحوها وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطئ البوسفور.

كل ذلك والإمبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بما يهدد مملكته، وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفّس غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض أموال الكنائس على أن يعيدها بعد

الحرب مع رباها، وحشد جنده وركب البحر إلى كليكيّا في آسيا الصغرى واحتلّ إيسوس فلقية الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢م، وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة.



هرقل ملك الروم وحاشيته.

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر أبرويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته.

أما هرقل فإنه حاربه مرة أخرى سنة ٦٢٧م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارًا عظيمًا، وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الأشوريين القديمة وهي أول مرة وطئ الروم فيها تلك المدينة، وكان أبرويز قد أصبح شيخًا طاعنًا في السن فأوصى بالملك لابنه مردز، وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسد أخاه وعمد إلى الكيد له ولأبيه، فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقي من أولاد أبرويز وهم ثمانية عشر ولدًا فقتلهم جميعًا بين يدي أبيه وزج أباه في السجن حتى مات.

وبموت كسرى أبرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعيش ابنه شيرويه بعده إلا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى، وادعى الملك تسعة ملوك في أربع سنوات، فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال.

ناهيك بما كان يهدد الروم في أوروبا من هجمات برابرة القوط، وكان هؤلاء في أوائل الإسلام قد استولوا على غربي هنجاريا «المجر»، وزد على ذلك أن الهون كانوا في أثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق.

(٤) الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال في دولتي الروم والفرس مقصوراً على الوجهة السياسية والإدارية، ولكنه كان يتناول الأحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضضع، لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيتة والمشيتتين، وأكثر اختلافهم على الألفاظ، والجوهر واحد.

فكان الإمبراطور وأهل دولته يقولون إن للمسيح طبيعتين ومشيتتين، وأما رعيته في مصر والشام فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيتة واحدة وهم البعاقبة، وفي زمن هرقل سعى البطريرك إثناسيوس بطريرك البعاقبة في منبج في التوفيق بين الطائفتين، فخاطب الإمبراطور في ذلك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين، وهو أن للمسيح طبيعتين ومشيتة واحدة، فوافقه الإمبراطور واستمهله ريثما يخبر بطريق القسطنطينية بيروس وهو سوري الأصل، وكان إثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الإمبراطور، فنشر الإمبراطور بهذا المعتقد منشوراً قبله أكثر الأساقفة الشرقيين إلا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الأساقفة، وفي مقدمتهم أسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية، فشق ذلك على الإمبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم، فأصبح الانقسام مزدوجاً الإمبراطور وبقارقة القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيتتين، والبعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر، والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب ثالث، فضلاً عن طوائف أخرى غير هذه منهم الخياليون الذين يقولون إن المسيح لم يصلب حقيقة، وإنما صلب رجل آخر مكانه، والإكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج، ثم إن البعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه.

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين، حتى آل ذلك أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى الفرس، كما حصل للأرمن فإنهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة جعل الإمبراطور يشدد النكير

على متبعيها، والأرمن منهم، فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفرس، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص، فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه.

(٥) التناقض بين الروم واليهود

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما كان بين اليهود والروم من تباض قوي بسبب ما جرى عليه أباطرة الدولة الرومانية من اضطهاد اليهود في تلك الأيام، وقد بلغ هذا التباض حده في أيام هرقل فثار اليهود في أنطاكية وقتلوا بطريقها ومثلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً، فأرسل إليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً، وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى، فاطلع مطران صور على المكيدة وأخبر الوالي بها فأمر الوالي الحامية والبوابين والحراس بأن يكونوا تلك الليلة على حذر، ولما جن الليل هجم اليهود من خارج السور فردهم الجند على أعقابهم، فرجع اليهود إلى الأديرة والكنائس القائمة بجوار المدينة فهدموها وسلبوا أنيتها، وفعلوا مثل ذلك فيما جاورها من القرى، فعاقبتهم الحكومة بقتل كل يهود صور. وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فأرسل الملك أخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود، فاشتد غيظهم على المملكة في كل أنحاء، وزاد الروم خوفاً من اليهود وحذراً منهم أن بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك أن رجلاً من أهل الختان سيأخذ المملكة منه، ويقول العرب إن المراد بأهل الختان المسلمون، ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم، أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى وذبحوهم.

ولم يكن التباض مقصوراً على ما بين اليهود والروم، لكنه كان بينهم وبين النصارى على الإجمال، وكانت حكومات النصارى إذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منه لليهود لمعاملتهم بالاحتقار، كما فعل القوط حكام إسبانيا قبيل زمن الفتوح الإسلامية فقد سماوا اليهود أعداء الحكومة القوطية، وكانت المجالس المالية في تلك المملكة قد قررت إلغاء الديانة الإسرائيلية فأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم، وأجبرتهم على النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديداً حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانية وقلوبهم ما زالت يهودية تكاد تنفجر حقداً وكظماً على ما نالهم من صنوف العذاب، ولم يكن القوط يجهلون تكتهم ولذلك لم يكونوا يعاملون المنتصرين منهم معاملة المسيحيين الأصليين، بل حرموهم من كل الحقوق المدنية وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في إزلالهم حتى منعوهم من القراءة، فهل نستغرب بعد ذلك إذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين...؟

(٦) حالة الفرس الداخلية

أما الفرس فقد كانت حالتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الإسلام بمدة طويلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن ماني ومزدك، ومن غريب دعوى هذا الأخير أن إلهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس على السواء، لأنهم أخوة أولاد أب واحد، وتبع هذا المذهب قباز أحد ملوكهم، فجاء بعده من نقضه وأقام غيره وتشعبت الآراء هناك وفسدت الأخلاق، وفيما كان الروم والفرس على ما ذكرناه من الانحلال كان العرب في إبان نهضتهم، وقد اجتمعت كلمتهم واشتد أزهرهم بمن كان يهاجر إليهم من رجال الروم والفرس أنفسهم، فرارًا من تغالب الأحزاب أو ضعف الحكام.

انتشار الإسلام

يبدأ تاريخ الإسلام بالهجرة، فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، فرارًا مما كان القرشيون يسومونهم إياه من الخسف والإهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم، وقد رأوا من أهل المدينة مؤازرة ونصرة بما أظهره من البيعة المعروفة ببيعة العقبة فأمر النبي المسلمين بالهجرة إلى المدينة فلاقاه أصحابه هناك بالترحاب وأنزلوه وأنزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة.

(١) التعاهد بين المهاجرين والأنصار

وأول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين أصحابه المسلمين (المهاجرين والأنصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف في الدفاع عن المصالح العامة، وكتب بين الفريقين كتابًا يعترفون فيه أنهم أمة واحدة، وقد أورد ابن هشام نص ذلك الكتاب ثم خص المهاجرين من قريش والأنصار من يثرب بعهود أخرى سموها المؤاخاة، فأخى بين أصحابه المهاجرين والأنصار بعهود وثيق، هذا هو الحجر الأول من أساس الدولة الإسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات، وفرضت الزكاة والصيام وأقيمت الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الإسلام، ثم انضم إلى المسلمين بعض وجهاء المدينة فتأيد الإسلام بهم كما تأيد من قبل بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب.

(٢) الغزوات

فلما فرغوا من ذلك فكروا في ما بينهم وبين أهل مكة من العداء، فعمدوا إلى مقاتلتهم، لنصرة الإسلام فحدثت الغزوات المشهورة — وهي أول الحروب الإسلامية — بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب في جاهليتهم وانتهت بفتح المدن والممالك، وأشهر الغزوات وأهمها غزوة بدر الكبرى، لأن فوز المسلمين فيها قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة الغزو.

(١-٢) غزوة بدر الكبرى

بدر أبار بين مكة والمدينة، تنزل عندها القوافل التجارية المسافرة بين مكة والشام، وكان القرشيون أهل تجارة تسير قوافلهم إلى الشام تحمل إليها البضائع — كما تقدم — فعلم المسلمون في السنة الثانية للهجرة أن قافلة من القرشيين أهل مكة، قادمة من الشام ومعها الأموال يخفروها ثلاثون رجلاً يرأسهم أبو سفيان بن حرب كبير أهل مكة يومئذ، فانتدب النبي أصحابه لغزو القافلة وأخذ أموالها، فبلغ أبا سفيان ذلك فعجل بإرسال رسول يطلب النجدة من أهل مكة، فجاءه منهم ٩٥٠ رجلاً فيهم مائة فارس، وخرج المسلمون وهم ٣١٣ رجلاً منهم ٧٠ من المهاجرين والباقيون من الأنصار، ولم يكن معهم إلا فرسان وسبعون جملًا، وبلغهم بعد خروجهم من المدينة أن قافلة قريش قاربت أبار بدر، فسبقهم المسلمون إلى المكان وبنوا للنبي عريشًا جلس فيه ومعه أبو بكر، وتهيأ أصحابه للحرب.

ثم رأوا قريشًا مقبلين وهم نحو ثلاثة أمثالهم، وفيهم نخبة رجال مكة الذين قاوموا الإسلام وأهانوا النبي وفي جملتهم أبو جهل بن هشام، وعلم النبي أن هذه الواقعة حد الفصلين إما أن ينتصر المسلمون ويتأيد الإسلام إذا غلبوهم، وإما أن تعود العائدة عليهم إذا غلبوا، فلما رأى القرشيين قادمين في مثل هذا العدد نظر إلى أصحابه فإذا هم قليلون فقال «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض».

وباشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة، ثم قتل أبو جهل فجاءوا برأسه إلى النبي فسجد وشكر الله، ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين، وقد قتل منهم أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من القرشيين سبعون رجلاً وفيهم من أشرف بطون قريش كلها، وخصوصًا بني أمية وبني مخزوم وبني أسد، وأسر منهم سبعون رجلاً فيهم عقبة بن أبي معيط فأمر بقتله، لما كان من أذاه النبي بمكة، وكان

أكثر المسلمين جهادًا في تلك الواقعة علي بن أبي طالب ابن عم النبي وحمزة بن عبد المطلب عمه، وفر من بقي من القرشيين وفيهم أبو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذي صار من أكبر قواد الإسلام فيما بعد، ساروا يطلبون مكة وغادروا الأموال والأمتعة فاستولى المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها، ففرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً، ثم بعث القرشيون يفتدون أسراهم، فاجتمع من ذلك مال كثير، وقد عاد أهل مكة مخذولين، فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين، ومما زادهم تأييداً أن أبا لهب المشهور بمقاومة الإسلام، لم يخرج يوم بدر من مكة، لكنه أرسل من يحارب عنه على جاري عادتهم في من يتخلف عن الحرب، فلما أخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة أيام، ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريخ الإسلام، لأنها كانت فاتحة الانتصارات الأخرى.

(٢-٢) واقعة أحد

ثم إن القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية، وقائدهم أبو سفيان وعددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس، وتهيأوا للأخذ بثأر قتلهم في بدر، وساروا لمهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويدبن قتلى بدر ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين، وكان في جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك، فلما أقبلوا على المدينة تشاور النبي وأصحابه فكان رأيهم البقاء في المدينة للمدافعة، ورأى مثل ذلك أيضاً رجل من الصحابة اسمه عبد الله بن أبي بن سلول، ولكن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج عليهم، فأطاع النبي الأكثرية وخرج في ألف منهم حتى توسطوا بين المدينة وجبل أحد، وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة «غزوة أحد»، وكان ابن أبي هذا قد غضب، لأن النبي خالف رأيهم وأطاع الآخرين، فلما توسطوا الطريق تقهقروا هو وثلاث الرجال، وأشاع القرشيون في الجند أن محمداً قتل، ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة، وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي، وكان قتله سبباً في زيادة الفشل كما كان إسلامه مؤيداً للإسلام، وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلاً، وأصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر «الدرع» في الشجة فسال الدم، ومثل القرشيون بقتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً، فقطعوا الآذان والأنوف حتى إن هنذاً بنت عتبة امرأة أبي سفيان «وأم معاوية» شقت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها.

وكانت هذه الواقعة أشد ما أصاب المسلمين إلى ذلك الحين، لكنهم كانوا قد ذاقوا لذة النصر فنسبوا هذا الفشل إلى خيانة عبد الله بن أبي المتقدم ذكره، وعادوا إلى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق.

(٢-٣) واقعة الخندق

وذلك أن قبائل العرب لما رأوا انتصار القرشيين في أحد تحزبوا لأهل مكة وانضموا إليهم، وفيهم قريش وخطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير من اليهود — وكان المسلمون قد أجلوهم عن أماكنهم كما سيأتي فحرضوا قريشاً على الحرب — وحملوا على المدينة في بضعة عشر ألفاً ونحو أربعمئة فرس وألف بعير، وهم الأحزاب وبهم تعرف الواقعة أيضاً، وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف، فاضطربوا وخافوا، وقد تعلموا من الواقعة الماضية أن لا يخرجوا من المدينة.

وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسي، فأشار على النبي بحفر الخندق — وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل — فقال له سلمان «كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، فإن ذلك من مكاييد الحرب» فاستحسن النبي ذلك وأمر بالحفر، وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب، ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بني قريظة، فاحتفروا الخندق حول المدينة في بضعة عشر يوماً.

وأقامت الأحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها، فقصوا بضعة وعشرين يوماً لا يقاتلون إلا بالرمات بالنبال والحصي، وقد هالهم أمر الخندق وعلموا أنها مكيدة جديدة، على أن بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه، فزاد الرعب في قلوب الأحزاب، فلما طال بهم الانتظار عمدوا إلى البراز، فخرج أحدهم وطلب البراز فخرج إليه علي بن أبي طالب فغلبه علي، واتفق على أثر ذلك سقوط الأمطار وهبوب الرياح، فأثرت في خيام الأحزاب وكفأت قُدورهم، وأهل المدينة في منازلهم قلما أثرت فيها الأنواء، فتشاءم أولئك وعادوا على أعقابهم، فزال عن المسلمين عار أحد بهذه الهزيمة.

(٣) الفتوح

كل ما تقدم من الحروب لا شيء من الفتح فيه وإنما هو غزو ومقاتلة، وأما الفتوح الإسلامية فأولها فتح أرض بني النضير وهم يهود، حدث حادث دعا إلى مطالبتهم بالجلاء عن بلادهم فطلب النبي أن يجلوا عنها فحاصروهم ستة أيام «سنة ٤هـ»، فطلبوا إليه أن يخلي سبيلهم على أن يحملوا معهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك فخرجوا وظل ما بقي من أموالهم فيئاً للنبي خاصة يعطي منه من يشاء، وكذلك حصل في قريظة وخيبر، وكان لخبيـر حصون كثيرة فتحوها تباغاً.

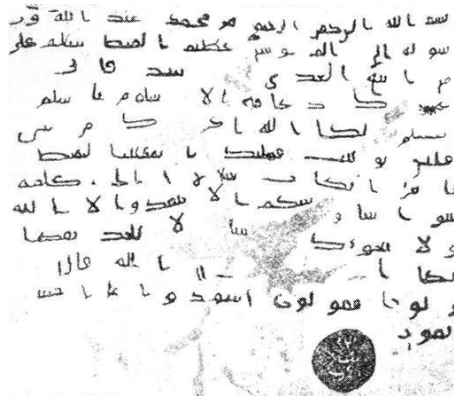


حصن خيبر.

أما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين، فـعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده «أن من شاء من أهل المدينة أن يقدم مكة للحج أو العمرة أو أن يجتاز بها إلى اليمن أو الطائف فهو آمن، ومن قدم من أهل مكة أو من معهم من أهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن».

(١-٣) واقعة مؤتة

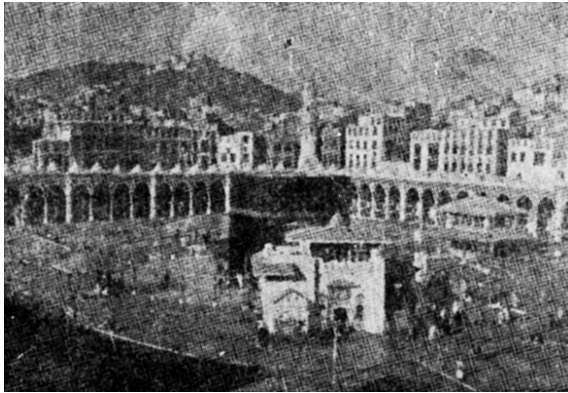
فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية، وكان لفشل الأحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الإسلام في نفوسهم، فجعلوا يقدون إلى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم، وفي جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم في تاريخ الإسلام، هما خالد بن الوليد وعمر بن العاص وكلاهما من أشهر القواد، فاعتز المسلمون بهم واتسعت آمالهم، فأرسل النبي في السنة التالية رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، في جملتها كتاب إلى المقوقس وإلى مصر، وبعث «سنة ٨هـ» جنداً لمحاربة الروم في الشام، فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة، وتلك أول حروبهم مع الروم، والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد، فلم يفلحوا فعادوا إلى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب أخو علي.



كتاب النبي إلى المقوقس عثر عليه بعض الفرنسيين سنة ١٢٧٥هـ. (تفصيل ذلك في الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣).

وحدث في أثناء ذلك حادثة أفضت إلى نقض الصلح بين المسلمين وقريش، فرأى أبو سفيان أنهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين، فجاء بنفسه إلى المدينة لتجديد العهد،

وأدرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة، فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جواباً صريحاً عن قبولهم إياه،^١ فلما عاد إلى مكة تجهزوا على عجل لكي يباغثوها قبل أن يتأهب أهلها للدفاع، فساروا حتى أقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والأنصار وقبائل من العرب المحالفة، وكان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون، فلقىهم العباس بن عبد المطلب عم النبي، فسأله أبو سفيان عما هنالك، فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم، فقال أبو سفيان «لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيماً» فأشار عليه العباس أن يستأمن، فلم يرَ لنفسه خيراً من ذلك، فجاء معه إلى معسكر المسلمين، فأكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من إيذائه، لأنهم كانوا ينوون الإيقاع به، وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من أهل مكة يوم الفتح آمناً مثل من يدخل المسجد.



مسجد مكة وفي وسطه الكعبة.

فعاد أبو سفيان وأخبر أهل مكة بما كان، فاستضعفوه وخذلوه وشتموه حتى إن امرأته هند بنت عتبة أخذت بشاربيه وقالت «اقتلوا الحميت الدسم الأحمس ... قبحه الله من طليعة قوم» فلم يبال.

^١ أبو الفدا ج ١ ص ١٩٨.

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها، وسار النبي تَوًّا إلى الكعبة فكسر الأصنام التي كانت في المسجد حولها وفي جوفها، ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها، وكان ذلك آخر عهد مكة بالوثنية، وتحولت الكعبة من ذلك الحين إلى مسجد يعبد فيه الله، وأسلم أهل مكة كافة وفيهم أبو سفيان وأولاده، وفي جملتهم معاوية^٢ بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية.

(٣-٢) المؤلفلة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبي أشراف مكة الذين أسلموا بعد الفتح «المؤلفة» أو «المؤلفة قلوبهم»، إشارة إلى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب أقوامهم، تعزيزاً للإسلام، وفي السيرة الحلبية أن من المؤلفلة قلوبهم من تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان بن أمية، ومن تألفهم لدفع شرهم، وكان يتألفهم جميعاً بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى، وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه.

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه إلى ما حولها يدعو الناس إلى الإسلام، ثم غزا حنيناً والطائف، وشتان بن مجيئه إلى الطائف الآن ومجيئه في أول دعوته، لقد جاءهم يومئذ مستنصرًا وجاءهم الآن فاتحًا، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الإبل و٤٠٠٠٠ من الغنم و٤٠٠٠ أوقية من الفضة، فلما عمد إلى تفريقها في أصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى أبا سفيان مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير وأعطاهم الفضة، فكان جملة ما أخذه أبو سفيان وأولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين أوقية من الفضة، فقال أبو سفيان «بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب وفي السلم».

^٢ السيرة الحلبية ٨٠ ج ٣.

(٣-٣) عتب المهاجرين والأنصار

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الأشراف مثل الحارث بن هشام أخي أبي جهل المشهور وصفوان بن أمية وغيرهما، فشق ذلك على المهاجرين والأنصار وهم دعامة الإسلام وأهل السابقة، فكيف يتركون وتفرق الغنائم في من لم يسلموا إلا مكرهين بعد أن غلبوا على مدينتهم؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا «كيف يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم؟» فبلغ ذلك النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب قولهم ولكنه قال لهم «إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم ليحسن إسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم، وأما أنتم فوكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟...» وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا.

ثم عادوا إلى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع أمر سلطانهم في كل جزيرة العرب، فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون في الإسلام.

(٤-٣) محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريباً، عادوا إلى توسيع دائرة الفتح، فأمر النبي سنة ٩هـ بالتجهز لإعادة الكرّة على الروم، فجهزوا جنداً عدده ثلاثون ألفاً فيهم عشرة آلاف فارس، وتلك أكبر حملة استطاعها المسلمون إلى ذلك الحين بذلوا فيها كل ما في وسعهم من المال والرجال، ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من العطش، فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون إليها ومعهم عرب لخم وجذام، فجاءهم صاحب أيلة «وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة» فصالحهم على الجزية، وفي أثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق، على سبع مراحل من هذه وهو عربي نصراني من كندة، فأخذ خالد وقتل أخاه وأخذ منه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وأرسله إلى المسلمين، فلما رأوه تعجبوا منه لأنه أول عهدهم بمثل هذه الملابس، ثم عادوا إلى المدينة ولم يفتحوا شيئاً من بلاد الروم.

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الإسلامية، والإسلام لا يزال حديثاً، فسعى الذين حط الإسلام من نفوذهم أو وقف في سبيل أغراضهم فارتدت معظم

قبائل العرب عنه، إلا أهل المدينة ومكة والطائف، وأصبح الإسلام في خطر شديد، لو لم يتداركه أبو بكر.

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا في الجزء الأول من هذا الكتاب نشأة الدولة الإسلامية وتاريخ مصالحها الإدارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها، ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تتجلى منه للباحثين، أما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والأبهة والعلم والأدب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها، وأما حقيقة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير أو الشر، من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله أو سواهم من بني الإنسان، ومن ظواهر التمدن الإسلامي الثروة والعلم والأدب والصناعة والتجارة، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها، وسنحصر بحثنا في هذا الجزء في ثروة المملكة الإسلامية دون سواها.

والبحث في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة وأسبابها وأوجهها باعتبار الدول والعصور والنظر في ثروة كل عصر مع دراسة ما إذا كانت الثروة مفرقة بين الأهالي أو محصورة في فئة منهم أو في الحكومة أو في رجالها، ودراسة ما يتصل بذلك من وصف ثروة المدن والأبنية وغيرها.

ومعلوم أن المملكة الإسلامية بلغت أوجها من الغنى والثروة في العصر العباسي، فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفيناً بالإشارة إلى مقدار ما كان يُحمَل إلى بيت المال من الجبايات، وما كان عليه الخلفاء وأتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها، ولكننا عوّلنا منذ أخذنا في تأليف هذا الكتاب أن نسند كل حادث إلى أسبابه بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الأسباب إلى أصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام، مع اعتبار الأحوال واختلافها باختلاف العصور.

والمملكة الإسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الإسلامية؛ لأن هذه العبارة عن الحكومة ورجالها، وأما المملكة فهي البلاد وأهلها، فيحسن والحالة هذه أن نقسم الكلام

في الثروة المذكورة إلى: ثروة الدولة الإسلامية، وثروة المملكة الإسلامية، ونتكلم في كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها.

وبناء على ذلك سنجعل الكلام في ثروة الدولة الإسلامية باعتبار العصور، فنبدأ بعصر النبي ﷺ، فالخلفاء الراشدين، فبني أمية، فالعباسيين، ونقسم كل عصر إلى أبواب، بعضها للبحث في ثروة الحكومة أو بيت المال، والبعض الآخر للبحث في ثروة رجال الحكومة، وما يستلزمه ذلك من النظر في أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها أو قلتها، وتاريخ الخراج والجزية وغيرهما وأبواب النفقة وغير ذلك.

وبناء على ذلك نقول إن ثروة الدولة الإسلامية مرت في خمسة أدوار أو عصور وهي:

- (١) عصر النبي ﷺ.
- (٢) عصر الخلفاء الراشدين.
- (٣) عصر بني أمية.
- (٤) عصر العباسيين الأول أو عصر الازدهار العباسي.
- (٥) عصر العباسيين الثاني أو عصر الاضمحلال.

أما الدول الإسلامية الأخرى في مصر والأندلس وغيرهما فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد أو التمثيل؛ لأن المراد بالتمدن الإسلامي إنما هو التمدن العباسي الشهير.

ثروة الدولة الإسلامية

(١) عصر النبي (من سنة ١-١١هـ)

إذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها أو ما تختزنه بعد نفقاتها من الأموال ونحوها، فالدولة الإسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية؛ لأنهم لم يكونوا يخزنون مالاً ولا كان عندهم بيت مال، بل كانوا إذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم، وكذلك الصدقات فإنها كانت تفرق في أهلها، وإذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة إليه، وكان النبي ﷺ يتولى ذلك بنفسه، وأكثر الصدقات من الماشية والإبل والخيول، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها.

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من إبل أو خيل أو ماشية، وتمتاز عن أموال سائر الناس بمراعٍ خاصة كانت تُحَسَّب فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالجمي^١ وبميسم كان النبي نفسه يسمها به^٢ وبلغت الأموال في أيام النبي نحو ٤٠٠٠٠ بين إبل وخيول وغيرها^٣ ومن هذه الأموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة وإعالة الفقراء ونحوهم.

(٢) عصر الخلفاء الراشدين

هذا هو عصر الإسلام الذهبي، عصر العدل والتقوى، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا إليها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين؛ لأن الحكومة انتقلت بعدهم إلى طور

جديد وانقلبت من الخلافة الدينية إلى الملك السياسي، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا في حشد الأموال بأية وسيلة كانت.

(٢-١) بيت المال

توفي النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجات، وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلًا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر، وردت عليهم الأموال ذهبًا وفضة فأدهشهم كثرتها وتنبهوا لها، يقال إن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفيه فقال له عمر: «بم جئت؟» قال: «بخمسمائة ألف درهم» فاستكثره عمر وقال: «أتدري ما تقول؟» قال: «نعم، مئة ألف خمس مرات.» فصعد عمر المنبر وقال: «أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وإن شئتم عددنا لكم عدلاً.» وكان ذلك من جملة ما دعاه إلى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبي، ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل: «يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون عدة لحادث إذا حدث.» فزجره عمر وقال له: «تلك كلمة ألقاها الشيطان علي فيك وقاني الله شرها، وهي فتنة لمن بعدي، إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا.»^٥

فلما كثرت الأموال في أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة أو المزرعة؛^٦ لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى إلى عبيدهم ومواليهم، أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل لا يمنعه انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف، فإذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره إلى أصحابه من أهل قريته، تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين.^٧

والغرض الذي كان يرمي إليه عمر من هذه القاعدة أن يُبقي أهل الذمة وأرضهم مصدرًا للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إتمام الجهاد ووفقاً لمصالحهم مدى الدهور، أما إذا اشترى المسلمون الضياع فإنهم يستقلون بنفعها دون سواهم، ولا تمضي بضعة أجيال حتى تصير أملاكاً خاصة بهم^٨ وعمر يريد أن يبقيها محبوسة على آخر هذه الأمة

من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين، لا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد^٩ وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموي وكان يقلد ابن الخطاب في كل خطواته فقال:

أيما ذمي أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه وماله، وما كان من أرض فإنها من فيء الله على المسلمين، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها، فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم.^{١٠}

فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما.

(٢-٢) ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة، فلما توفي أبو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارًا واحدًا سقط من غرارة؛^{١١} لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر إلى مصلحة نفسه، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل إسلامه، وذلك أربعون ألف درهم غير ما اكتسبه من التجارة؛ لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة، ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله؛ لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين^{١٢} وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما.

وأخبار عمر بن الخطاب في الزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر، ويقال بالإجمال إنه مؤسس دولة المسلمين، وقد أسسها على أمتن دعائم الملك، أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته أنه من قبيل المبالغة، ويسهل علينا التصديق به إذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ، يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين، وكان إذا احتاج إلى مال فوق راتبه جاء إلى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد^{١٣} ولما طعن وأحس بدنو أجل قال لابنه: «إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً فلترد من مال ولدي فإن لم يف مالهم فمال آل الخطاب.»^{١٤} وزهده في الطعام واللباس مشهور.

ويقال نحو ذلك في الإمام علي، فقد كان مغالياً في الزهد والعدل، ومن أقواله: «تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كبش، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار، وما لي خادم غيرها». وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيماً فقسمه على سبعة أسهم ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يُعطى أولاً، ولم يبين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب، وقيل إنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال: «لو كان عندي أربعة دراهم ثمن أزرار لم أبعه». ومناقبه لا تحصى.^{١٥}

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى وحسن الاعتقاد في الإسلام، فكان عمر إذا اكتسب أحد عماله مالاً من تجارة أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبناً، كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة، وعمرو بن العاص عامله على مصر، وأبي هريرة عامله على البحرين^{١٦} وغيرهم.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن العامل إذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء، ويستهلك في مصلحة الأمة فإنه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه، على أن الخليفة نفسه لا يولي أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه، وخصوصاً عمر، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة، ويعزلهم لأقل تهمة، ذكر أنه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد، فلما انقضت السنة كتب إليه: «أقدم إلينا» فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده، وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره، فلما رآه عمر قال: «يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟» فقال: «يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرباها». فقال: «وما معك من الدنيا؟» قال: «عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدواً إن لقيته، ومزود أحمل به طعامي». فقال: «ما صنعت بعملك يا عمير؟» قال: «أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الزمة، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به». فقال له: «عد إلى عملك». ^{١٧}

ولا بد لنا مع ذلك من أن نقف هنيهة للنظر في أمر يفتقر إلى تفسير، قلنا إن عمر لم يكن يختزن مالاً ونهى عن اختزانه، فلو كانت الأموال التي ترد إلى بيت المال تفرق على السواء

كما كانت تفرق الغنائم في أيام النبي وأبي بكر لهان عليه أن لا يختزن، ولكنه فرض أعطية معينة يتناولونها كل عام.

ونعلم أيضًا أن الأموال زادت كثيرًا في أيامه بما انضم إليهم من الأعمال بالفتح، وكلها تؤدي الخراج والجزية فضلًا عما يلحق بيت المال من الغنائم، فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الأموال بعد دفع الأعطية المذكورة؟ يظهر أنه كان يفرقه في أهل الحاجة أو لعله كان يستبقي بعضه على أن يفرقه، ولا يعد ذلك اختزانًا؛ لأنه إنما منع الاختزان للحرب.

(٢-٣) اقتناء المسلمين للأموال

على أن رأي عمر بعدم اختزان المال ينافي المبدأ الأساسي الذي تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات؛ لأن اختزان الأموال من ضروريات الملك، ولكن المسلمين الأولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكًا سياسيًا، ولذلك لم تطل مدتهم إلا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها، فعاد الناس إلى فطرتهم وتسابقوا إلى حشد الأموال والاستئثار بالسلطة.

وقد باشروا ذلك في أيام عثمان بن عفان (سنة ٣٣-٣٥هـ)؛ لأنه لم يكن شديدًا مثل عمر وكان مع ذلك أمويًا، فاعترض الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الإسلام لأن النبي منهم، فأخذ عثمان يولي الأعمال رجالًا من أقربائه وفيهم من لم يعتنق الإسلام إلا يأسًا من فوزه على المسلمين، وكثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة، كما فعل بغنائم إفريقية سنة ٢٧هـ فإن المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٥٠٠٠٠٠ دينار أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم وزوجه ابنته^{١٨} وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال، وأبطل عثمان محاسبة العمال؛ لأنهم من أهله، فزادوا طمعًا في حشد الأموال لأنفسهم، وخصوصًا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهاءً وأبعدهم مطمعًا، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها.

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام وأقروا الأرض في أيدي أصحابها، كان جانب كبير منها ملكًا للبطارقة قواد جند الروم، فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال، فكان العمال يقبلونها كما

يقبل الرجل ضيعته (أي يضمناها) ويضيفون دخلها إلى بيت المال، فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه، ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً فكتب إليه أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن رسل الروم ووفودهم، ووصف في كتابه هذه المزارع وأن لا مالك لها وليست هي من قرى أهل الذمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه إياها،^{١٩} وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره ألف دينار في السنة^{٢٠} وهو كثير بالنظر إلى رواتب العمال في تلك الأيام، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه إلى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فقراء أهل بيته، فجرأه ذلك على التمادي في اقتناء الأرض وبيعها في أيام خلافته والإذن للمسلمين في ذلك.

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة، فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة المعروفين مثل طلحة والزبير وسعد وغيرهم، وزادت أموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فإنه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الأموال، فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ١٠٠٠٠٠ دينار، وخلف خيلاً وإبلًا^{٢١} والظاهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال، وأغراه أهله وخصوصاً معاوية، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً.

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرض مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال في مقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم، فلما حصلت فتنة الأشعث سنة ٨٢هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم.^{٢٢}

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن؛ لأنه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى، وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان؛ فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر، وكان يرى «أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم»،^{٢٣} وكان يقوم في الشام ويقول: «يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.» وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأجوبه على الأغنياء، فشكا الأغنياء إلى معاوية ما يلقون منهم، وكان معاوية يشكو أمرهم من شكائهم؛

لأن أبا ذر وَبَّحَهُ غير مرة لاختزانه المال، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق، وقد سأله معاوية: «كيف ترى هذا؟» فقال أبو ذر: «إن كنت بنيتَه من مال الله فأنت من الخائنين، وإن كنت بنيتَه من مالك فإنك من المفسرين.»^{٢٤} فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغريه بها ثم يتهمه باكتناز المال، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذر فرقها حالاً مع أنها وصلته ليلاً، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ وأن معاوية يطلبه فأخبره أنه أنفقه في ساعته، فلم يرَ معاوية سبيلاً إلى اتهامه بالفتنة فكتب إلى عثمان: «إنك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر.» فكتب إليه: «احمله على قتب بغير وطاء.»^{٢٥} فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يهرب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم عن الحق، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات، فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما نقموه عليه إلى مقتله.

فلما قتل عثمان سنة ٣٥هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية لنفسه، رأى بين دعائها من هم أحق بها منه نسباً وسابقة، فاحتال إليها بالمال فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في إنشاء الأحزاب، ولا غرو فإن المال قوة تتحول إلى ما شئت من القوى، وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى، ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن، فما من حرب أو سلم أو محالفة أو معاهدة وما من فتح أو حصار إلا والمحرك عليه أو الداعي إليه «المال»، وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصره بالدهاء والسيف، حتى أفضت الخلافة إليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصفُ له إلا بعد مقتل علي (٤٠هـ) وتنازل الحسن له عنها، والناس مع ذلك يعلمون أن معاوية إنما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الإمام علي: «إن علياً كان يقاتله معاوية بذهبه.»^{٢٦} وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك، فجعلوا المال أكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم، فجرهم ذلك إلى الاستكثار منه بأي وسيلة كانت كما سيأتي.

فالثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين، ولكن تحريمها لم يبق طويلاً؛ لأن بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب، أو من يكون في مثل مناقبه وتقواه مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران، فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تآقت نفوسهم إلى الترف وحشد الأموال وزادهم ميلاً إلى ذلك رغبة بني أمية في الاستكثار منها، فانقضى عصر الراشدين ولم يرَ المسلمون مثله بعده، وظل

أبو بكر وعمر مضرب أمثال القوم قرونًا متطاولة، إذا اعوج حاكم أو خليفة طلبوا إليه أن يفتدي بهما، وخصوصًا عمر، فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته في الحق، حتى إن أشهر عمال بني أمية ظلمًا ودهاءً أرادوا الاقتداء به في ذلك، فتهوروا وانقلب فيهم إلى الظلم والعسف، يقال إن زياد ابن أبيه أراد أن يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الأمور والحزم والصرامة وإقامة السياسات إلا أنه أسرف وتجاوز الحد، ثم أراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر.^{٢٧}

(٣) عصر بني أمية (من سنة ٤١-١٣٢هـ)

تمتاز دولة بني أمية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية إلى الملك السياسي، وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم، ولذلك فإن أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الأصليين قاسوا من خلفاء بني أمية ومن عمالهم الأمور الصعاب، حتى الذين أسلموا منهم فإن العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم «الموالي»، ويعدون أنفسهم ذوي إحسان عليهم لأنهم أنقذوهم من الكفر، وإذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعًا لله، وكان بعض العرب إذا مرت به جنازة مسلمة قال: «من هذا؟» فإذا قالوا: «قرشي» قال: «وا قوماه!» وإذا قالوا: «عربي» قال: «وا بلدتاه!» وإذا قالوا: «مولى» قال: «هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء.» وكانوا يحرمون الموالي من الكُنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم^{٢٨} وكانوا يسمونهم العلوج، وفي كتاب الموالي للجاحظ أن الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لا يجتمعوا، فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه إليها، وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر:

وأنت من نقش العجلي راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم^{٢٩}

وسنعود إلى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية في المملكة الإسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب، وإنما أشرنا إلى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين.

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم أنهم اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقًا حلالًا لهم، يدل على ذلك قول سعيد بن العاص

عامل العراق: «ما السواد إلا بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه.»^{٣٠} وقول عمرو بن العاص لصاحب «إخنا» لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو: «إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خف عنا خففنا عنكم.»^{٣١} فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاءوا من أموال الناس، وقد جرأهم على ذلك معاوية إذ جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد، فعل ذلك في بادئ الرأي ترغيباً لهم في نصرته، ثم توالى عليه وعلى من خلفه من بني أمية الحروب مع أحزاب بني هاشم والخوارج وغيرهم، فاضطروا إلى الاستكثار من الأموال ولا سبيل إلى جمعها إلا بالخراج والجزية من أهل البلاد، فاستخدموا من العمال من يثقون باقتدارهم على جمع الأموال فضلاً عن الحرب، وأشد أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق، واحتاج عبد الملك إلى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة، وفيهم عبد الله بن الزبير في مكة، والمختار بن أبي عبيد في العراق، وغيرهما، فوكل ذلك إلى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الأموال بحق وبغير حق.^{٣٢}

(١-٣) أجور العمال

وكان عمال بني أمية يجورون على أصحاب الأرض من أهل الذمة في التحصيل ونحوه، لا يهتمهم بقي لهم من المحصول شيء أم لا، وكان الخراج يومئذ على المساحة، فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت أم لم تزرع، وكان من شروط الخراج أن يستبقى لأصحاب الأرض ما يجبرون به النوائب والحوادث، ومما يحكى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فأجابته: «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً.»^{٣٣}

والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الأرض حمل بعضهم على الإسلام احتماء به فأصبحوا من الموالي، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج^{٣٤} الخراج مع أنهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم وغادروا القرى وسكنوا الأمصار فراراً من تلك الضرائب، فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لأن المسلمين كانوا إلى ذلك الحين لا يقيمون إلا في المدن التي بنوها هم، وأهل البلاد الأصليون يقيمون في القرى للزرع والحرب، فمن اعتنق منهم الإسلام رفع الخراج عن رأسه، وصار ما كان في يده من الأرض وداره إلى أصحابه، يؤدون عنها ما كان يؤدي من الخراج كما تقدم، وينزل هو إلى الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط.

ففعل ذلك في أيام الحجاج جماعة كبيرة، ربما التمسوا به النجاة من الضغط فإذا هو ملاقيهم، وكتب الحجاج إلى الأمصار: «أن من كان له أصل في قرية فليرجع إليها لتؤخذ منه الجزية والخراج»، فعل ذلك في أيام ابن الأشعث فخرج الناس وهم ييكون وينادون: «يا محمداه! يا محمداه!» ولا يدرون إلى أين يذهبون، فاضطروا إلى الانضمام للأشعث على الحجاج.^{٣٥}

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم، فقد فعله مثله أيضًا يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على إفريقية^{٣٦} وكذلك فعل الجراح في خراسان^{٣٧} وغيره فيما وراء النهر^{٣٨} وكان أهل سمرقند قد أسلموا على أن ترفع الجزية عنهم، فظلوا يأخذونها منهم فعدوا إلى دينهم.

أما النصارى وغيرهم من أهل الزمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم، فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية، ورأى هؤلاء أن اعتناق الإسلام لا ينجيهم من ذلك، فعمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهبنة؛ لأن الرهبان لا جزية عليهم، فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر بإحصاء الرهبان، وفرض على كل راهب دينارًا^{٣٩} وهي أول جزية أخذت من الرهبان، وأمثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني أمية.

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال، فإنهم زادوا الخراج عما كان عليه في أيام الراشدين، بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطًا، فكتب إلى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن: «زد على كل امرئ من القبط قيراطًا»، فكتب إليه: «كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا أزيد عليهم؟»^{٤٠} ولعل عمرًا لم يطعه في ذلك لأن مصر طعمة له، فلما انتقلت إلى خلفاء بني أمية بعد عمرو زادوا في الخراج ما شاءوا، وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥-١٢٥هـ) فإنه زاد على القبط قيراطًا في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك، وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم، فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعًا كبيرًا، وحدث نحو ذلك على يد أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج فإنه أوقع في النصارى وأخذ أموالهم، وكثر الالتجاء إلى الرهبنة في أيامه فأراد أن يمنع ذلك لأنه يضر في الخراج والجزية، فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم

الراهب واسم الدير وتاريخه، فكل من وجده بغير وسم قطع يده، وألزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ما عليه، وكتب إلى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير، ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب.^{٤١} على أن ذلك لم يكن برضى الخليفة، فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب إلى عامله بمصر أن يجري النصارى على عوائدهم وما في أيديهم من العهود، ولم يطل العمل بهذا الأمر فعاد العمال إلى ظلمهم، وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فإنه زاد في الخراج وأحصى الناس والبهاائم، وجعل على كل نصراني وسمًا صورة أسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده.^{٤٢} وقس على ذلك أمثلة كثيرة من شدة عمال بني أمية على أهل الذمة والموالي وغيرهم من العرب.

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية أن أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم دينارًا، ومُدَّين قمحًا، وقسطين زيتًا، وقسطين خلًّا في العام، فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك، فبعث إلى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالًا بأيديهم، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير، فألزمهم ذلك جميعًا وجعلها طبقة واحدة.^{٤٣} ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالي، ولكنها شملت العرب المسلمين أنفسهم، وذلك أن محمدًا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجًا سماه «الوظيفة»، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بإلغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر.^{٤٤} وكان عمال بني أمية في فارس يخرصون الثمار على أهلها؛ أي يحزرون مقدارها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به، فيأخذونها قرفًا على قيمتهم التي قدروها.^{٤٥}

وكان من أساليبهم في الاستكثار من الأموال ضرب الضرائب على الأرض الخراب، وكانوا يفرضون على الأهالي هدية في عيد النيروز بلغت في أيام معاوية ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم^{٤٦} وفرضوا مالا على من يتزوج وعلى من يكتب عرضًا^{٤٧} وكانوا يكيلون للعامل

بكيل وللأكار بكيل آخر، ويكلفون أهل الخراج أرزاق العمال، وأجور المدى وحمولة الطعام، وثمان صحف وقراطيس، وأجور الكياليين ومؤونتهم، وإذا أتى أحدهم بالدرهم ليؤديها في خراجها يقتطع الجابي منها طائفة ويقول: «هذا رواجها وصرفها».^{٤٨}

ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الأعمال من عند أنفسهم دائماً، بل كثيراً ما كانوا يفعلونها بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية إلى وردان، وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الأموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها^{٤٩}، وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك؛ لأنه كان شديد الحاجة إلى المال ومنه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال إلا اتخذها، أما لو أراد الخلفاء إبطال هذه المظالم لهان عليهم إبطالها؛ لأن العمال في أيام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم.

ولما جار عمال الأهواز في أيامه شكاهم أبو المختار يزيد بن قيس بقصيدة، بين فيها أرباحهم من أهل الرساتيق والقرى وسماهم في قصيدته، وحرص عمر على مقاسمتهم ما ربحوه، إلى أن قال:

فقاسمهم أهلي فداؤك إنهم سيرضون إن قاسمتهم منك بالشر
ولا تدعوني للشهادة إنني أغيب ولكني أرى عجب الدهر

فبعث عمر إليهم فقاسمهم شطر أموالهم حتى أخذ نعلًا وترك نعلًا، ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض إخوتهم، فاعترض هؤلاء، فقال أحدهم لعمر: «إني لم أَل لك شيئاً». فقال له: «أخوك على بيت المال وعشور الأبله وهو يعطيك المال تتجر به». فأخذ منه عشرة آلاف.^{٥٠}

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال، فلم يكن يموت له عامل إلا شاطر ورثته وهو يقول: «إنها سُنَّة سنّها عمر». ثم تدرج إلى استصفاة أموال الرعية، وهو أول من فعل ذلك.^{٥١}

فالعمدة في حفظ النظام على الرأس، فإذا صلح صلحت الأعضاء، فقد رأيت أن خلفاء بني أمية طلبوا المال لقيام دولتهم بأي وسيلة كانت، فأمدوا العمال بالسلطة وأطعموهم فعمد هؤلاء إلى إحراز الأموال إلى أنفسهم أيضاً، واقتدى بهم العمال الصغار

كالكاتب والجابي ونحوهما، فزادت شكوى أصحاب الأرض فاضطر العمال إلى إخراج أعمال الجباية من العرب وتسليمها إلى الموالي، ومنهم الدهاقين أصحاب الضياع في العراق، فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤هـ فعاتبه بعضهم فأجابته: «كنت إذا استعملت العربي كسر الخراج، فإذا أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرمت صدورهم، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه، فوجدت الدهاقين أبصر بالجبابة وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم، مع أنني جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً.»^{٥٢}

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها، قال: «بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة، منهم من له حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضي بذلك الذمات فليس يحفظون ما يولكون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه، إنما مذهبه أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك كله — فيما بلغني — بالعسف والظلم والتعدي، ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام.»^{٥٣}

وكان شأن بني أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ وكان تقياً منصفاً، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سميّه وجده لأمه عمر بن الخطاب، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة^{٥٤} وأبطل لعن علي على المنابر وكان أهله قد اقتنوا الضياع وأخذوا كثيراً منها من أهل الذمة بغير حق، ففتح بابه للناس وأعلن: «أن من كانت له ظلامة فليأت.» فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله، وآخر اغتصاب ضيعته، وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو كان الحكم على ابنه أو أخوته أو أبناء عمه، قال ابن الأثير: «وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن أخذه ولا هم أن يعطوني، وإنني قد هممت برده على أربابه، قال: فكيف تصنع بولدك؟ فجرت دموعه وقال: أكلهم إلى الله^{٥٥} وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها «مظالم»،^{٥٦} فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم، وهو إنما قام بالمال فإذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعاً، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها فأتته فقال لها: «إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة.»^{٥٧}

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضغط، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وفدًا: رجلين من العرب ورجلًا من الموالي، فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر: «ما أنت من الوفد؟» قال: «بلى» قال: «فما يمنعك من الكلام؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، عشرون ألفًا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم حفيًا، وأنا اليوم عصبي، والله لرجل من قومي أحب إليّ من مائة من غيرهم، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان.»^{٥٨} فقال عمر: «أحرّ بمثلك أن يوفد» وكتب إلى الجراح: «انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية.» فرغب الناس في الإسلام وتسارعوا إليه فقليل للجراح: «إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورًا من الجزية فامتحنهم بالختان.» فكتب الجراح إلى عمر بذلك فأجابه: «إن الله بعث محمدًا داعيًا ولم يبعثه خائنًا.»^{٥٩}

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح، وكان حيان قد كتب إليه: «أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل.» فكتب إليه: «أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطًا، فضع الجزية عن أسلم، قبّح الله رأيك، فإن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جانيًا، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه.»^{٦٠}

وقس على ذلك عماله الآخرين، فإنه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده؛ لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال، وما في بني أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه، فلم يصبروا على خلافته، وانتهت خلافته في ظروف غامضة سنة ١٠١هـ/٧٢٠م وبعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين، وإذا قالوا «العمرين» أرادوه وعمر بن الخطاب.^{٦١}

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الإنصاف والرفق، ولكن تطبيق هذه القواعد اختلف باختلاف الذين يتولون شؤونها، ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأمّحت مظالم بني أمية، ولكنه جاء في غير أوانه فذهب سعيه هدرًا، ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها

ورافقها رد الفعل فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله، وبالع العمال في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الخراج وزادوه، حتى اضطر بعض أصحاب الأرض إلى الإلجاء؛ أي أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقارب الخليفة أو العامل تعززاً به من جباة الخراج كما سيأتي.

أما الخلفاء فإنهم زادوا انغماساً في الترف، وأولهم يزيد بن عبد الملك فإنه انقطع إلى اللهو والخمر، واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته: سلامة، وحبابة وحديثهما مشهور،^{٦٢} وخلفه أخوه هشام وكان بخيلاً، وفي أيامه زادت الضرائب في مصر على يد الحجاب كما تقدم، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل أبيه في اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ، وكان عازماً على إصلاح الأمور اقتداءً بعمر بن عبد العزيز، كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته،^{٦٣} فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر؛ لأن الأحوال كانت غير ملائمة، وفي أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم.

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم، وربما ولوا العامل عملاً بإشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجند بن عبد الرحمن، وكان الجند قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى هشاماً قلادة أخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١هـ^{٦٤} وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية ١٠٠٠٠٠٠ درهم وهي الذلفاء^{٦٥} وأصبح العمال لا همّ لهم إلا حشد الأموال والاستكثار من الصنائع والموالي، ولم يعد أهل العدل يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق، فقال يزيد في نفسه: «إن العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج، أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني.»^{٦٦} وقس على ذلك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق، فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠٠٠٠ درهم^{٦٧} وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم، فكثر أموالهم واتسعت ثروتهم

فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم^{٦٨} أي نحو مليون دينار، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً من عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل إليه معرفتهم من أموالهم، كما فعلوا بخالد القسري إذ وشى به كاتبه حيان النبطي أنه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله^{٦٩} ويسمون هذا العمل «استخراجاً» وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوق بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية.

أما ارتفاع الدولة الإسلامية في أيام بني أمية، أي مقدار ما كان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما، فقد ضاع تفصيله في جملة ما ضاع من أخبارهم في الفتن، على أن المملكة الإسلامية بلغت في أيامهم اتساعاً عظيماً يعدل اتساعها في أيام العباسيين، ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر، وأما الأطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة، على أن كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر؛ لأن قدم الأمويين لم تكن راسخة فيها.

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال، وقد فصلنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، وخلاصته أن متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وجباية مصر ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار (أو ٤٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧٢٠٠٠٠٠ دينار (أو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٩٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره.

وخلاصة ما تقدم أن الأموال كانت تستخرج في أيام بني أمية بكثرة، ولكنها لا تسمى ثروة؛ لأنها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم، فقد حاربوا علياً، والحسين بن علي، والمختار بن أبي عبيد، وعبد الله بن الزبير، وحاربوا الخوارج وغيرهم، ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي، فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والأمراء في البذخ واللهو والقصف.

(٤) الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً: العصر الأول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهر، يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢هـ إلى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨هـ، وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذي نحن في صددده، وفيه أدركت ثروة الدولة الإسلامية أعظم ما بلغت إليه في عصر من العصور، وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب.

والعصر الثاني — ويعبرون عنه بعصر التقهقر أو الاضمحلال — يبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ وينقضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد، وفيه تهقر التمدن الإسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة حتى انحلت عراها وانقضت أيامها.

(٤-١) العصر العباسي الأول (من سنة ١٣٢ إلى ٢١٨هـ)

سبب قيام هذه الدولة

رأيت فيما تقدم أن العصر الأموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية إلى السياسية الدنيوية، وأن خلفاءها وعمالها إنما كان مهمهم جمع المال، وأنه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الأمم، وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم؛ في مصر، والشام، والعراق، وفارس، وخراسان، وغيرها، وفيهم: القبط، والنبط، والروم، والسريان، والكلدان، والفرس، والترک، والسودان، وغيرهم — حتى الذين أسلموا منهم — فأصبحت تلك الأمم تتن من معاملتهم، وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج، وأصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا إلى خلعهم^{٧٠} وخصوصاً الموالي، فإنهم باعترافهم الإسلام خسروا أراضيهم ومنازلهم، وأصبحوا مطالبين بالذهاب إلى الحرب لحماية الدولة، فكان بنو أمية يخرجونهم إلى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء، وكان خصوم هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الأرزاق وأول من فعل ذلك المختار بن أبي عبيد سنة ٦٦هـ؛ إذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة، فعظم ذلك على العرب وقالوا: «إن المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا.» فقال لهم المختار يومئذ: «إذا أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير، وتعطونني على

الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن إليه من الإيمان؟» فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم: «إن أطمعتموني لم تخرجوا» فقالوا له: «لَمْ؟» فقال: «لأنني أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا، ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة، ومواليكم أشد حنقًا عليكم من عدوكم، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم.»^{٧١}

وكان ذلك شأن الموالى مع كل من قام يدعو إلى خلع بني أمية، ولذلك كثر الخوارج في أيامهم وقام في نفوس العرب أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية^{٧٢} على أن هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين إلا بعد أجيال، أما يومئذ فكان الدعاة أكثرهم من أهل بيت النبي، وفيهم العلويون من نسل الإمام علي ابن عم النبي، والعباسيون من نسل العباس عمه، وكان الخراسانيون من أكثر الناس نقمةً على بني أمية للأسباب التي قدمناها، فأخذوا بيد العباسيين وقائداهم أبو مسلم الخراساني، ولما نهضوا نهض معهم أعداء بني أمية من العرب وغير العرب في كل أنحاء المملكة الإسلامية، فضلًا عن أهل البلاد غير المسلمين، فدارت الدائرة على بني أمية وانتصر العباسيون، فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من أنصارهم.

وعرف العباسيون علة سقوط بني أمية، فتجنبوا الوقوع في مثلها، فاتخذوا الجند والأعوان من الفرس، واستبقوا الجند العربي أيضًا من ربيعة ومُضَرَ رغبة في المحافظة على العصبية العربية لأنها عماد الإسلام.

ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين؛ لأنهم انساقوا بطبيعة الأمور إلى الاختلاط بالفرس والتزيي باللبستهم من القلانس ونحوها، جعلوا ذلك فرضًا واجبًا عليهم، وأول من أخذ الناس بلبسها المنصور سنة ٧٣١٥٣ فأمروهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول، فقال أبو دلامة:

وكنا نُرَجِّي من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

على أن غضب العرب لم يغير شيئًا من مجاري الأمور، فاتخذ الخلفاء أمهات أولاد من الفرس، أولدوهن أولادًا تولوا الخلافة، وفيهم ميل فطري إلى العنصر الفارسي، وازداد هذا العنصر تغلبًا في بلاد الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم:

كالبرامكة وغيرهم، وكان الفرس يبذلون جهودهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية؛ لأن في قيامها صلاح بلادهم.

العرب والبيعة

على أن الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب، وفيها الحرمان: الكعبة، وقبر النبي ﷺ وفي احترامهما احترام الدين الإسلامي، وعليه تقوم دعائم الخلافة، وزد على ذلك أنهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل علي، وهم في حاجة إلى بيعة فقهاء المدينة لما لهذه البيعة من الأهمية في تأييد الخلافة وتوكيد البيعة، وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمرًا دونهم^{٧٤} فشق ذلك على الفرس وخافوا أن يرجع النفوذ إلى العرب، فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم أدراج الرياح، فسعوا في إغفال بلاد العرب، ولا سبيل إلى إغفالها والكعبة فيها، وهي حج المسلمين والحج من أركان الإسلام، فحبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجًا للناس، فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيرًا للكعبة^{٧٥} وقطع الميرة في البحر عن المدينة^{٧٦} فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين، وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل علي، وخلعوا بيعة المنصور، وقد أفتى لهم بذلك مالك بن أنس الإمام الشهير،^{٧٧} وكان بنو أمية في الأندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة^{٧٨} عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب واستقل عبد الرحمن بالأندلس لبعدها عن دار الخلافة، ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور، وبذل قصارى همه في قتله، ولم يستطع ذلك إلا بعد العناء الشديد.

فكان ما قاساه المنصور من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه، فلما تولى ابنه المهدي أكرم أهل الحرمين، وكسا الكعبة كسوة جديدة، وفرق هناك مالاً عظيماً جاء به معه من العراق مقداره ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وجاءه وهو في المدينة ٣٠٠٠٠٠٠ دينار من مصر، و٢٠٠٠٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب، ووسع المسجد واتخذ حرساً من الأنصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه إلى بغداد وأقطعهم الأرض^{٧٩} وأمر بحفر نهر الصلة بواسطة وأحيا ما عليه من الأرض، وجعل غلته لصلوات أهل الحرمين والنفقات هناك^{٨٠} وأصبح إكرام الحرمين على هذه الصورة سنة في بني العباس في أثناء حجهم، أو عند طلب البيعة لأولادهم، فإن الرشيد حج سنة ١٨٦هـ ومعه ابنه الأمين

والمأمون، فلما وصل المدينة أعطى فيها ثلاث أعطيات عنه وعن ولديه، وفعل نحو ذلك في أهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتابًا بولاية العهد للأمين وآخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة^{٨١} وأصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية، وعاد شأن العرب إلى الظهور، والخلفاء يرون ذلك ضروريًا؛ لتثبيت أقدامهم في الملك.

على أنهم كانوا من الجهة الأخرى لا يستغنون عن الفرس، وهم وزراؤهم ومشيرهم، فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الأمين والمأمون، واستنصر المأمون جند خراسان وهم أخواله؛^{٨٢} لأن أمه فارسية وقام العرب ينصرون أخاه الأمين، وأمّه عربية هاشمية^{٨٣} وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على أزمة الملك فعاد النفوذ إلى الفرس، فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وأرادوا البيعة لسواه وإخراج الأمر من يده^{٨٤} فازداد كرهًا لهم وردلهم، فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان.» فقال له: «أكثر عليّ، والله ما أنزلت قيسًا من ظهور خيلها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببني قط، وأما قضاة فساداتها تنتظر السفيناني حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مصر.»^{٨٥}

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨هـ واصطنع الأتراك والفراغة ازداد العرب هوانًا في عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى في مصر، فإن آخر عربي تولاهما غنبة بن إسحق الضبي سنة ٢٣٨هـ^{٨٦} وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد العرب جميعًا، وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافًا واتخذ منى وعرفات، غرر به أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقه^{٨٧} فأصبح لفظ «عربي» مرادفًا لأحققر الأوصاف عندهم، ومن أقوالهم: «العربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة واضرب رأسه.»^{٨٨} وقولهم: «لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به.»^{٨٩} وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم.

وكان العرب من الجهة الأخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الأعاجم، ويطعنون فيمن يميل إليهم ولو كان من الخلفاء، ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبيل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة، فلما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين:

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

وخلاصة ما تقدم أن الجامعة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الأول نشر الإسلام في الأرض، يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وأن الله يدعوهم إلى ذلك، فلما تولوها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال، وتحول الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة، وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالأعاجم، واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال وانخرطوا هم في سلوكهم بواسطة الأمهات، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصفد والفراغة وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى.

هوامش

- (١) الماوردي ١٧٦.
- (٢) البخاري ١٩٠ ج ١.
- (٣) شرح الموطأ «خط».
- (٤) المقرئزي ٩٢ ج ١.
- (٥) ابن الأثير ٢٤٨ ج ٢، والفخري ٧٥.
- (٦) المقرئزي ٢٥٩ ج ٢.
- (٧) ابن عساكر (نسخة كريم).
- (٨) كتاب الخراج لأبي يوسف ١٤.
- (٩) ابن عساكر.
- (١٠) المقرئزي ٧٧ ج ١.

علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من أول الإسلام إلى إبان التمدن الإسلامي، وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع:

(١) العلوم التي اقتضاها الإسلام، وهي علوم القرآن، والحديث، والفقه، واللغة، والتاريخ، ونُسميها العلوم الإسلامية أو الآداب الإسلامية.

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الإسلام، وهي الشعر والخطابة، ونُسميها الآداب الجاهلية أو الآداب الإسلامية.

(٣) العلوم التي نُقلت إلى العربية من اللغات الأخرى، كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية، ونُسميها العلوم الدخيلة أو الأجنبية.

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الإسلامي، نمهد الكلام بمقدمات لا بد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع:

(١) مقدمات تمهيدية

(١-١) الإسلام والعلوم الإسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم إذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم؛ لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما، وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع

والأحكام والأخبار، فلما دانوا بالإسلام أصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه؛ لأنَّه قاعدة الدين والدنيا، وبه تتأيد السلطة والخلافة، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا إلى ما أثار عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو استحسان أو استهجان يستوضحون بها ذلك الإشكال، فأصبح همهم جمع الأحاديث ممن سمعها أو رواها عن سامعها بالإسناد المتسلسل، فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها، فرجعوا إلى درس الأسانيد واستطلاع أخبار أصحاب الحديث، فجرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التي تناولوا تلك الأحاديث فيها.

ولما قامت دولتهم أخذوا في ضرب الأموال على البلاد التي فتحوها أو غنموها، وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح، بين أن يكون عنوة أو صلحاً، وأماناً أو قوة، فبحثوا في تحقيق أخبار الفتوح والمغازي وتدوينها، ولما فسدت الأحكام في أيام بني أمية، أكثر العلماء من ذكر المواعظ وإيراد أخبار السلف من الصحابة، وخصوصاً الخلفاء الراشدين، فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين.

والنظر في أحكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها، فنشأ من ذلك علم التفسير، وبإسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات، وبإسناد السنة إلى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث، ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها، على وجه قانوني يُفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهو علم أصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الإيمانية، ثم علم الكلام.

ولما عمدوا إلى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما، أشكل على غير العرب إعرابهما لأنَّ ملكة اللغة غير راسخة فيهم، فاضطروا إلى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني ألفاظها، ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم.

وتعيين معاني الألفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم إلى البحث عن لغة قريش التي كُتب بها القرآن، وقد رأيت أنَّ مرجع التحقيق في ذلك إلى الأشعار والأمثال، فاشتغلوا في الأسفار إلى بادية العرب، وخالطوا الأعراب ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم، ليدونوها ويرجعوا إليها في التحقيق، فرأوا مشقة في فهم معاني أشعارهم وأمثالهم إلا بالاطلاع على أنسابهم وأدابهم، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب، واختلفوا في فهم الأشعار، ووجدوا في روايتها اختلافًا وفي بلاغتها تفاوتًا، فعمدوا إلى البحث في طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم.

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم، كالنجوم والأنواء والخيال والأنساب وغيرها، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا

أيضاً كثيراً من تلك العلوم، ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة، وعثروا أيضاً على ألفاظ وأشعار يندر ورودها فآلفوا النواذر.

وجملة القول أنّ ما اشتغل به المسلمون في صدر الإسلام من العلوم مرجعه إلى القرآن، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية، فضلاً عن الدينية، ولذلك سميناها العلوم الإسلامية.

(٢-١) العرب والقرآن والإسلام

كان الإسلام في أول أمره نهضة عربية، والمسلمون هم العرب، وكان اللفظان مترادفين، فإذا قالوا العرب أرادوا المسلمين، وبالعكس، ولأجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب، وأصبح أهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب. وأساس الإسلام وقوامه القرآن، ففي تأييده تأييد الإسلام أو العرب، وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة، لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس، فنشأ في اعتقادهم أنّه لا ينبغي أن يسود غير العرب، ولا يُتلى غير القرآن، وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في أيام بني أمية، وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم إلى نقمة سائر الأمم عليهم. أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام «أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله»^١ فرسخ في الأذهان أنّه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن؛ لأنّه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله، وقد نهى الشرع الإسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن، لاتحاد الكلمة واجتماعها على الأخذ به، ومن الأحاديث المأثورة من هذا القبيل: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد». ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: «ألم أتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»^٢. ومن الأحاديث التي شاعت في ذلك العهد: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم»^٣. فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه، ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس، كما حاولوا بعدئذ هدم إيوان كسرى وأهرام مصر وغيرها

^١ النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١، ورُوي أيضاً: «الإسلام يجب ما قبله».

^٢ ابن خلدون ٣٦٤ ج ١، وكشف الظنون ٢٥ ج ١، وأبجد العلوم ١٠٩.

^٣ العقد الفريد ١٥٨ ج ١.

من آثار الدول السابقة — فلا غرو إذا قيل: إنَّ العرب أحرَقوا مكتبة الإسكندرية أو غيرها من خزائن العلم القديم.

(٣-١) إحراق مكتبة الإسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الإسكندرية جمعوا إليها كتب العلم من أقطار العالم المتمدن في ذلك الحين، وسيأتي خبرها، وتوالى على هذه المكتبة أحوال كثيرة في أيام الرومان إلى الفتح الإسلامي، وقد ضاعت بين إحراق ونهب، والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها، فمنهم من ينسب إحراقها إلى عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب، ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية، وأشهرها أقوال أبي الفرج المظني وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة. ومنهم من يجل العرب عن ذلك ويطنن في تلك الروايات ويضعفها، وقد كنَّا ممن جارى هذا الفريق في كتابنا «تاريخ مصر الحديث» منذ بضع عشرة سنة، ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي ترجيح الرأي الأول، لأسباب نحن باسطوها فيما يلي إجلاء للحقيقة فنقول:

أولاً: قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن، بالإسناد إلى الأحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة.

ثانياً: جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج المظني عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه: «وعاش (يحيى الغراماطيقي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو، وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله، ففتن به، وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه، ثم قال له يحيى يوماً: «إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها، فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به»، فقال له عمرو: «ما الذي تحتاج إليه؟» قال: «كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية». فقال عمرو: «هذا ما لا يُمكنني أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب». فكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: «... وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان

فيها ما يُخالف كتاب الله فلا حاجة إليه، فتقدم بإعدامها». فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدتها، فاستنفدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعجب».^٤

وليس في نص هذه العبارة التباس، ولكن الذين يجلون العرب عن إحراق هذه المكتبة يطعنون في هذه الرواية وينسبون قائلها إلى التعصب الديني، وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الإفرنج، وقد ألفوا الرسائل والكتب في تجريحها، وخلاصة أقوالهم: إنَّ أبا الفرج المذكور هو أول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص، وإنَّه إنَّما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للإسلام، وإنَّه من أهل القرن السابع للهجرة، وكان أبوه يهودياً وتنصر، وشبَّ أبو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الأكليروس إلى الأسقفية، ثم ألف تاريخاً في السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية، واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سمَّاه مختصر الدول — قالوا: «وهو أول كتاب ذكرت فيه هذه القصة، وتناقلها عنه الإفرنج إلى هذه الغاية». وإنَّ ما جاء في هذا الشأن من أقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة؛ لأنَّ المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً، وحاجي خليفة لم يذكر مدينة الإسكندرية وإنَّما أشار إلى أنَّ العرب في صدر الإسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم إلا بلغتهم وشريعتهم، حتى قال: «ويروى أنَّهم أحرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد». وأنَّ عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن عمود السواري بغير تحقيق، ويزعم أصحاب هذا الرأي أنَّ مكتبة الإسكندرية أحرقتها الرومان قبل الإسلام، وأنَّها لو أحرقتها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كُتَّاب الفتوح والمغازي. اهـ.

لا ننكر أنَّ بعض هذه المكتبة احترق قبل الإسلام، ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الإسلام، أما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس أبو الفرج أول من رواها كما توهم بعضهم، فإنَّ عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدتها وآثارها، وذكر إحراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة؛ لأنَّ أبا الفرج

^٤ كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك «في أوكسفورد» سنة ١٦٦٣م، وأما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه.

ولد سنة ١٢٢٦م (٦٢٢هـ) وعبد اللطيف زار مصر في أواخر القرن السادس للهجرة، وهاك نص عبارته: «ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة، بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها.

وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده، وأنه دار المعلم التي بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقتها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه»^٥.

نعم إن عبارة البغدادي مختصرة، وقد جاءت عرضاً، لكنّها تدل على وثوق قائلها بصحتها، كأنّه أخذها عن مصدر موثوق به ومعمل عليه في ذلك العصر، كالذي أخذ عنه أبو الفرج.

أما أبو الفرج فقد أتم كتابه «مختصر الدول» في العربية في أواخر حياته (توفي سنة ٦٨٤هـ). وهو ليس مختصر تاريخه السرياني إلا من حيث أخبار الفتح؛ لأنّه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة، عن الإسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم، وأما السرياني فهو عبارة عن أخبار الفتح فقط، فإنّغال ذكر إحراق المكتبة فيه لا يدل على أنّه دخيل في النسخة العربية، أو دسّه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم، وإنما ذكر في النسخة العربية؛ لأنّه يتعلق بآداب الروم والعرب التي أدخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم.

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب أنّ أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو أربعين سنة، وهو جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم، ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦هـ، وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء، عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩هـ، وقرأنا فيها في أثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام أبي الفرج وأكثر تفصيلاً منه، وفيه شيء عن تاريخ هذه المكتبة منذ إنشائها، وإليك نص قوله:

^٥ الإفادة والاعتبار ٢٨.

«وعاش (يحيى النحوي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى، فأكرمه عمرو ورأى له موضعاً، وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه، وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر، ففتن به، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله.

وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه، ثم قال له يحيى يوماً: «إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها، فأما ما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وأما ما لا نفع لك به فنحن أولى به، فأمر بالإفراج عنه». فقال له عمرو: «وما الذي تحتاج إليه؟» قال: «كتب الحكمة في الخزائن الملوكية، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها». فقال له: «ومن جمع هذه الكتب؟ وما قصتها؟»

فقال له يحيى: «إن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك حبب إليه العلم والعلماء، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن، فجمعت وولّى أمرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل، واجتمع من ذلك في مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً، ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة: أترى بقي في الأرض من كتب العلم ما لم يكن عندنا؟ فقال له زميرة: قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم، فعجب الملك من ذلك وقال له: دم على التحصيل، فلم يزل على ذلك إلى أن مات، وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا».

فاسكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له: «لا يمكنني أن آمر بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: «وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها». فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، وذكرت عدة الحمامات يؤمئذ

وأنسيتهما، فذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعجب»^٦. انتهى كلام ابن القفطي.

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبي الفرج يتضح لك أنَّ أبا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً، ولو قرأت الكتابين لعلت أنَّ أبا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي، ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج^٧، فإنَّ العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً.

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي، والغالب أنَّه نفس المصدر الذي نقل عنه عبد اللطيف البغدادي؛ لأنهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه؛ لأنه ولد سنة ٥٥٧ هـ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ، ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب.

على أننا إذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن أخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية إنشاء مكتبة الإسكندرية، يتضح لنا أنَّ في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه إسحاق الراهب، كان يبحث في أخبار اليونان والرومان وآدابهما.

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر إنشاء مكتبة الإسكندرية على يد زميرة، وهاك نصه: «إنَّ بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولَّى أمرها رجلاً يعرف بزميرة، فجمع من ذلك — على ما حكى — أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً، وقال له: أيها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم»^٨، وهي نفس عبارة ابن القفطي، فالظاهر أنَّه أخذ إنشاء المكتبة عن إسحاق المذكور، وأخذ حريقها عن سواه، ولولا ما نقله ابن النديم عن إسحاق الراهب من أمر الفلاسفة لما علمنا بوجوده، وظنناه لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الإسكندرية على يد عمرو. فيؤخذ مما تقدم أنَّ حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يخلقها أبو الفرج لتعصب ديني، ولا دسها أحد بعده، بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين،

^٦ تراجم الحكماء «خط».

^٧ مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤.

^٨ الفهرست ٢٣٩.

عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدرًا محتشمًا جمع من الكتب ما لا يوصف، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب، ولم يخلف ولدًا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة، وفي جملتها «كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين» في ستة مجلدات،^٩ وكتاب «تراجم الحكماء» الذي نحن بصده. وأن ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذوا عن مصدر ضائع.

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سببًا آخر، وعلى أي حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج.

ثالثًا: ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر إحراق مكتبات فارس وغيرها على الإجمال، وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الأقدمين بقوله: «إنَّ المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيطها للمسلمين، فكتب إليه عمر (رضي الله عنه) أن «اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه، وإن يكن ضللاً فقد كفانا الله تعالى» فطرحوها في الماء أو في النار، فذهبت علوم الفرس فيها».^{١٠}

وجاء في أثناء كلامه عن أهل الإسلام وعلومهم: «إنَّهم أحرَقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد»^{١١} ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «فأين علوم الفرس التي أمر عمر (رضي الله عنه) بمحوها عند الفتح».^{١٢}

^٩ فوات الوفيات ٩٦ ج ٢.

^{١٠} كشف الظنون ٤٤٦ ج ١.

^{١١} كشف الظنون ٢٥ ج ١.

^{١٢} ابن خلدون ٣٢ ج ١.

رابعاً: إنَّ أحراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه، فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها، كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه (سنة ٢١٣هـ) من مؤلفات المجوس، وقد عرضت عليه فلمّا تبين حقيقتها أمر بإلقائها في الماء، وبعث إلى الأطراف أن من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه.^{١٣}

ولما فتح هولاكو النتري بغداد سنة ٦٥٦هـ أمر بإلقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة، وكانت شيئاً لا يُعبّر عنه، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم،^{١٤} وقال آخرون: إنه بنى بتلك الكتب إسطبلات الخيول وطولات المعالف عوضاً عن اللّبن،^{١٥} والأرجح أنه أغرقها انتقاماً من أهل السنة.

ولما فتح الإفرنج طرابلس الشام في أثناء الحروب الصليبية أحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل، وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن، فأمر بإحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد،^{١٦} وفعل الأسبان نحو ذلك بمكتبات الأندلس لما استخرجوها من أيدي المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر.

خامساً: إنَّ أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي في تأييد الأديان الجديدة فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الأوثان في مصر وإحراقها بما فيها من الكتب وغيرها، وكان خلفاء المسلمين إذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم، والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجمعون سرّاً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم، ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠هـ، فإنه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة.^{١٧}

^{١٣} Brown's Lit. Hist. of Persia, 347.

^{١٤} ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥.

^{١٥} ابن الساعي ١٢٧.

^{١٦} Gibbon's Roman Empire II, 505. وابن خلكان ١٢٨ ج ٢.

^{١٧} ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤.

سادسًا: في تاريخ الإسلام جماعة من أئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم، منهم أحمد بن أبي الحواري، فإنه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يومًا خاطر من قبل الحق فحمل كتبه إلى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال: «نعم الدليل كنت لي على ربي، فلمَّا ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال» فغسل كتبه. وذكروا عن سفيان الثوري أنه أوصى بدفن كتبه، وأنَّ أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت إلى السقف ثم تنسك وأحرقها.^{١٨}

فيرجح مما تقدم أنَّ العرب أحرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييدًا للإسلام، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم أضعاف ما أحرقوه، كما سترى.

(١-٤) الرومان والإسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن «أنهم حتى في إبان تمدنهم لم يشتغلوا هم أنفسهم في العلم، وإنما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم، فقد كانوا هم أنفسهم يشتغلون بالعلم، وقد وضعوا علومًا تناقلها الناس عنهم، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم».

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب، والصواب أن يقابلوا بين الرومان والإسلام؛ لأنَّ العرب أسسوا دولة الإسلام كما أسس أهل رومية دولة الرومان، ودخل في دين الإسلام أمم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم أمة الإسلام، كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها أهل رومية وصارت أمة واحدة تُعرف بأمة الرومان. فإذا قابلنا بين الإسلام والرومان رأينا المسلمين أكثر اشتغالًا بالعلم والأدب من أولئك؛ لأنَّ كليهما نقلتا العلم عن اليونان، المشتغلون به من الرومان لم يكونوا من أهل رومية، كما أنَّ المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من أهل جزيرة العرب، والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان، وعدم اجتماع شعوب المملكة الإسلامية باسم العرب، أنَّ العرب فتحوا بلادًا أهلها عريقون في الحضارة، فلم يمكن اندماجهم

^{١٨} كشف الظنون ٤٠ ج ١، والبيان والتبيين ١٢٣ ج ١.

وضياع جنسياتهم، وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب، ومبالغة العرب في تفضيل أنفسهم على سواهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم.

أما اليونان فلا جدال في أنَّهم وازعوا العلم والفلسفة، لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك — وإن كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس أخذوا بعضها من المصريين القدماء، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم — ولكنهم يعدون واضعين، فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل، ولكنهم أضعف منهما في إنشاء الحكومات وسن الشرائع؛ لأنَّ اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة، وإنما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافرون ويتنافسون.

ثم إنَّ الرومان أخذوا العلم والفلسفة عن اليونان، وقلَّما زادوا فيهما، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان، فالرومان أهل فتح وسلطان، واليونان أهل تصور وخيال، وأما العرب فقد جمعوا الحسنتين؛ لأنَّهم أهل فتح وسلطان وأهل تصور وخيال؛ ولذلك فإنَّهم أنشأوا دولة بعيدة الأطراف، ووضعوا الشرائع والنظم (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم، فضلاً عمَّا وضعوه هم أنفسهم من العلوم الإسلامية واللسانية وما تفردوا فيه من قريحة الشعر، وليس هنا محل الإفاضة في ذلك.

(٥-١) حَمَلَةُ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ

قد تقدم أنَّ العلوم التي حدثت في التمدن الإسلامي صنفان: العلوم الإسلامية، والعلوم الدخيلة. فتغلب العلوم الإسلامية في غير العرب من المسلمين، سببه أنَّ العرب قاموا بالإسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون، فانصرف همهم في بدء الدعوة إلى نشر دينهم وإنشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم. وإنَّما كانت حاجتهم من العلم إلى القرآن، يدعون الناس به إلى الإسلام، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين. ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية وغيرها، والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح، وكانوا قليلين بالنظر إلى ذلك الملك الواسع، فضلاً عما قتل منهم في الحروب والفتن.

ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية أهلها وتدير شؤونها. فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة. ونظرًا لفطرتهم الخيالية انصرف

قرائحهم إلى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال — وهي آدابهم في جاهليتهم — وتحريض أبنائهم على إتقانها مع المثابرة على أسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيول، مما أعانهم على الفتح ونشر الدين، وأصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم.

وكأنَّ رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر إلى مستقبل الإسلام من طرف خفي، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة، ولهذا السبب لما تفرق العرب في الأمصار وتعرضوا لأخطار البحار، كتب إليهم عمر أن يمارسوا السباحة أيضاً، وهاك نص كتابه: «أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر».^{١٩}

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات، وأزعم الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه، كان أكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب، وهم الموالي وأكثرهم من الفرس، وكانوا يومئذ أهل تمدن وعلم، وكان العرب يعرفون لهم ذلك، ومن الأحاديث النبوية: «لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس»^{٢٠}، وكان الفرس من الجهة الأخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح، فجعلوا يتقربون إليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الإسلام — وهو في أوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث وإسناده وحفظه — لذلك كان أكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم، وإذا كان فيهم أحد من العرب فالأغلب فيه أن يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح، كالأصمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء:

لو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على أنَّ الأكثرين كانوا من غير العرب، فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث وأصحاب التفسير وهو فارسي الأصل، ونافع القارئ ديلمي، وقس على ذلك سائر العلماء، فمن أكابر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن سيرين بالبصرة، وعطاء

^{١٩} البيان والتبيين ٢١٣ ج ١.

^{٢٠} ابن خلدون ٤٧٨ ج ١.

بن أبي رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة، وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكر ونافع ابن أبي نجيح في المدينة، وربيعه الرأي وابن أبي الزناد في قباء، وطاوس وابنه وابن منبه في اليمن، ومكحول في الشام، وغيرهم في أماكن أخرى، وكلهم من الموالي أي المسلمين غير العرب.^{٢١}

ولما دعا فساد اللغة إلى ضبط قواعدها وجمع ألفاظها، كان العجم أحوج إلى ذلك من العرب، لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الألفاظ، فاشتغل الأعاجم بعلوم اللغة وكان أكثر علماء الأدب واللغة منهم، كحماد الراوية وهو ديلمي، والخليل وسيبويه والأخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس أو من في معناهم. أما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين؛ لأنَّ العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند إلى العربية، استخدموا عارفي هذه الألسنة من الكلدان والسرّيان والفرس وغيرهم لنقلها، وأكثرهم من النصراني كما سيجيء.

فالعرب اشتغلوا عن العلم في أول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التي قدمناها، وما زالوا هم أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها إلى أوائل الدولة العباسية، فتولد فيهم بتوالي الأجيال الأنفة من انتحال العلم؛ لأنه صار من جملة الصناعات — وأهل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن — وكانوا إذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة أو التعليم عابوه وقالوا: «إنه يشتغل بصناعات الموالي»، ومن أقوالهم: «ليس ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم إلا علم الأخبار، وأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول». ومر رجل من قریش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال: «أف لكم ... علم المتأدبين وهمة المحتاجين».^{٢٢}

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الإسلامية وهم مسلمون، على أننا لا نعد العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خالصاً لاختلاطهم بالموالي والمماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة، حتى الخلفاء فإنَّ أكثر أمهاتهم من غير العرب، وسنعود إلى هذا البحث في جزء آخر.

^{٢١} العقد الفريد ٧٤ ج ٢.

^{٢٢} البيان والتبيين ١٥١ ج ١.

(٦-١) تدوين العلم في الإسلام

قلنا فيما تقدم: إنّ الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب، لئلا تذهب بنشاطهم وبدوتهم، ولذلك منعهم من تدوين الكتب؛ لأنّ علومهم في أوائل الإسلام كانت مقصورة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث، ونظرًا لقلّة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة، كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم. ويستدل مما روي عن أبي سعيد الخدري أنّه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له، وروي عن ابن عباس أنّه نهى عن الكتابة وقال: «إنّما ضل من كان قبلكم بالكتابة». وجاء رجل إلى ابن عباس فقال: «إني كتبت كتابًا أريد أن أعرضه عليك» فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء، وقيل له: «لماذا فعلت ذلك؟» فقال: «لأنّهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم»،^{٢٣} وإن الكتاب يزداد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره.

وكان هذا الاعتقاد فاشيًا في الصحابة والتابعين، وتمسك به جماعة من كبارهم، وكانوا إذا سُئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا — ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة إليهم رأسًا، سأل رجل سعيد بن جبير — وهو من أعلام التابعين — أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: «لأن يسقط شقي أحب إليّ من ذلك».^{٢٤}

فقاضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون إلى البداوة؛ لأنّ دولتهم كانت عربية بدوية، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين، ويعتمدون على الحفظ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتي بيانها، وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال: «كيف أفعل أمرًا لم يفعله رسول الله؟»^{٢٥}

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم، وأكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون، وقد يكون بعضهم حافظًا ومفسرًا وهو لا يقرأ، كما كان شأنهم في الجاهلية: يشعرون ويخطبون ولا يقرأون.

^{٢٣} كشف الظنون ٢٥ ج ١.

^{٢٤} ابن خلكان ٢٠٥ ج ١.

^{٢٥} الفهرست ٣٢٤.

فلما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار، وتفرقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، اضطروا إلى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول، فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا إلى التدوين ورجعوا إلى حديث رواه أنس بن مالك وهو قوله: «قيدوا العلم بالكتابة»،^{٢٦} وقوله: «العلم صيد والكتابة قيد».^{٢٧}

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم، فكانوا يستكتبون الكتاب أو يلقون دروسهم بطريق الإملاء، وذلك أن يتكلم المحدث أو الفقيه والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد، فيبدأ المستمعي في أول القائمة بقوله: «مجلس أمله شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا» ويذكر التاريخ، ثم يورد المملي بإسناده سواء كان حديثاً أو خبراً، وإذا كان فيه غريب يحتاج إلى التفسير فُسِّره، وأورد أشعار العرب وغيرها بأسانيدها، أو الفوائد اللغوية بإسناد أو بغير إسناد على ما يختاره،^{٢٨} وهذا معنى قولهم «أمالي» المحدث فلان أو اللغوي، أي ما أملاه من الفنون.

وظلوا — حتى بعد اشتغالهم بالتأليف — يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع، وكان أحوج العلوم إلى ذلك علم الدين ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه؛ لأنَّ الكتابة في القرون الأولى للإسلام كانت بلا نقط، فلا تفرق في شعر الهذليين إذا أنت قرأته بين «شابة» و«ساية» وهما موضعان. ولا تثق بمعرفتك في تمييز أمثالهما مما تتشابه صورته بدون إعجام. وقرئ يوماً على الأصمعي في شعر ابن ذؤيب: «بأسفل ذات الدير أفرد جحشها» فقال أعرابي حضر مجلس القارئ: «ضل ضلالك أيها القارئ ... إنما هي ذات الدبر (بالباء) وهي ثنية عندنا» فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد. ومن يرى شعر المعذل في وصف الفرس:

^{٢٦} البيان والتبيين ١٦١ ج ١.

^{٢٧} كشف الظنون ٢٦ ج ١.

^{٢٨} المزهرة ١٦٢ ج ٢.

من السح جوالاً كأن غلامه يصرف سبداً في العنان عمردا

إذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ «سَيِّداً» بالياء، لانصراف الذهن إلى السَّيد وهو الذئب؟
وقد أخطأ في ذلك أكثر الذين قرأوا هذا البيت.^{٢٩}

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدَّون غير القرآن، مع أنَّ الكتابة كانت شائعة يومئذ، وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته، وإنَّما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل إلى القواد، ولتدوين الحساب في دفاتر الحكومة بعد أن انتقلت الدواوين إلى العربية، أما سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتُحفظ في الصدور، وربما دُوِّن بعضها في صحف غير مرتبة، وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفاً عندهم.

واختلف مؤرخو المسلمين في أول مَنْ صنف الكتب في الإسلام، فقال بعضهم: إنَّه ابن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥هـ،^{٣٠} وقال غيرهم غير ذلك، ولم يخرجوا على أي حال عن أواسط القرن الثاني للهجرة، وأنَّ أول ما دُوِّن — بعد القرآن والتفسير — الحديث. ولكننا رأينا من أَلَّف قبل ذلك بنصف قرن، وأنَّ أول ما دونه من العلوم بعد القرآن التفسير، وأقدم ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفى سنة ١٠٤هـ.^{٣١} ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي، وأقدم ما وصل إلينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفى سنة ١١٦هـ، وهو من أبناء الفرس المولدين باليمن، فألَّف كتاباً في الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم، قال ابن خَلَّكان: إنَّه شاهده بنفسه وأثنى عليه،^{٣٢} ثم كتاب المغازي لحمد بن مسلم بن شهاب الزَّهري المتوفى سنة ١٤١هـ،^{٣٣} ثم أَلَّف المسلمون في الحديث والفقه في أواسط القرن الثاني للهجرة، فصنف ابن جُريج بمكة وسعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وألَّف أبو حنيفة في الفقه

^{٢٩} الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠.

^{٣٠} ابن خَلَّكان ٢٨٦ ج ١.

^{٣١} كشف الظنون ٣١٤ ج ١، وابن الأثير حوادث سنة ١٠٢.

^{٣٢} ابن خَلَّكان ١٨٠ ج ٢.

^{٣٣} كشف الظنون ٣٠١ ج ٢، وابن خَلَّكان ٤٥٢ ج ١.

والرأي في الكوفة، وصنف الأوزاعي في الشام، ومالك جمع الموطأ بالمدينة، وغيرهم،^{٣٤} ثم تكاثرت التأليف بعد ذلك كما سيأتي.

(٧-١) الخط العربي

تاريخه

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة إلا قبيل الإسلام، مع أنهم كانوا مُحاطين شمالاً وجنوباً بأُمَم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة، وأشهر تلك الأُمَم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي، وآثارهم باقية إلى الآن في ضواحي حوران والبلقاء، والسبب في ذلك أن الحجازيين أو عرب مُضر كانت البداوة غالبية على طباعهم، والكتابة من الصناعات الحضرية.

على أن بعض الذين رحلوا منهم إلى العراق أو الشام قبيل الإسلام تخلقوا بأخلاق الحضر، واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي أو العبراني أو السرياني، ولكنَّ النبطي والسرياني ظلا عندهم إلى ما بعد الفتوح الإسلامية، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة إلى مدينة الكوفة، وكان الخط الكوفي يُسمَّى قبل الإسلام الحيري نسبة إلى الحيرة، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها.

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني، في جملتها قلم يسمونه «السطرنجيلي» كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس،^{٣٥} فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الإسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم، وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان إلى الآن.

واختلفوا فيمن نقله إلى بلاد العرب، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه — وذلك أن رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، تعلَّم هذا الخط من الأنبار وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي

^{٣٤} النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١.

^{٣٥} اللعة الشهية ١٧.

سياسة العرب في عصر الراشدين

من سنة ١١-٤١هـ

(١) الجامعة الإسلامية

قد رأيت أن العرب إنما كانوا يتفاضلون بالعصبة ويتفاخرون بالأنساب، فلما جاء الإسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم. وبعد أن كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الإسلام»، فقال النبي: «المسلمون إخوة»، وقال في خطبة ألقاها يوم فتح مكة: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»^١ وقال من خطبة في حجة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»^٢.

واقتردى بالنبي خلفاؤه الأولون، لا سيما عمر بن الخطاب، فإن جبلة بن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم، اتفق وهو يطوف بالكعبة أن فزارياً وطئ إزاره فانحل، فرفع

^١ ابن هشام ٢١٩ ج ٢.

^٢ البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١.

جبله يده وهشم الفزاري، فشكاه إلى عمر فأراد أن يهشم أنف جبله، فقال: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟» فأجابه عمر: «إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية»، فلم يحتمل جبله ذلك فعمد إلى الفرار.^٢

فيؤخذ من ذلك أن الجامعة الكبرى إنما هي الإسلام، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الأمم؛ لأنهم قوام الإسلام، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيراً؛ لأنهم أصل العرب ومادة الإسلام^٣ وقال: «إياكم وأخلاق العجم»، والإسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم. وعمر أول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم، ومن أقواله: «قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسع الله - عز وجل - وفتح الأعاجم»، وفدى سبايا العرب من الجاهلية والإسلام إلى أيامه^٤ عملاً بالحديث: «لا سباً في الإسلام».

وكان عمر لا يدع أحداً من العجم يدخل المدينة^٥ وهو الذي قسم خير بين المسلمين وأخرج اليهود منها، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران إلى الكوفة^٦ لتخلو جزيرة العرب من غير العرب. وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ أنسابهم لئلا تضيع عصبيتهم، ومن وصاياه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبت السواد إذا سئل أحدكم عن أصله قال: من قرية كذا...»^٧.

(٢) الجامعة العربية

ثم إن عمر، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها، قد حرص العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال: «ليست الحجاز لكم بدار إلا على النجعة ... سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها»^٨ لعلمه أن في

^٢ الأغاني ٤ ج ١٤.

^٤ ابن الأثير ٢٥ ج ٣.

^٥ ابن الأثير ١٨٦ ج ٢.

^٦ المسعودي ٢٩ ج ١.

^٧ ابن الأثير ٢٨٠ ج ٢.

^٨ ابن خلدون ١٠٩ ج ١.

^٩ ابن خلدون ١٢٢ ج ١.

العراق والشام عربًا يتحدثون معهم وينصرونهم. وكان عرب العراق ناقلين على الفرس من أيام دولتهم، لما كانوا يسومونهم إياه من الاضطهاد. وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين. وخصوصًا عرب العراق فإنهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس — فأبو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني، وإنما حارب حمية للعرب. وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر — وهم نصارى — وقالوا: «نقاتل مع قومنا»،^{١٠} وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية، بقطع النظر عن الدين.

وكثيرًا ما كان عرب الشام والعراق عونًا للمسلمين في حروبهم، يرشدونهم وينصحونهم ويحملون إليهم أخبار أعدائهم. فلما خرج الوليد بن عقبة غازيًا لقيه الروم فقاتلوه، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له: «إني لست من دينكم ولكنني أنصحكم للنسب، فالقوم مقاتلوكم إلى نصف النهار، فإن رأوكم ضعفاء أفنوكم وإن صبرتم هربوا وتركوكم»^{١١} وقد نفعته هذه النصيحة.

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق. ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على أهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب وإياد والنمر — وهم نصارى — أبى هؤلاء الجزية، وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم: «إنهم عرب يأنفون من الجزية، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك»، فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين، ولكنه شرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم.^{١٢}

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية، وكان يُعدُّ ذلك حقًا واجبًا. فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة، انضمت إليه عربها النصارى، إلا قبيلة إياد، فإنهم تحمّلوا إلى بلاد الروم، فكتب الوليد إلى عمر بذلك، فكتب عمر إلى ملك الروم: «بلغني أن حيًا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك» فأخرجهم ملك الروم.^{١٣}

^{١٠} ابن الأثير ٢١٥ ج ٢.

^{١١} الأغاني ١٨٧ ج ٤.

^{١٢} المعارف ١٩٣.

^{١٣} ابن الأثير ٢٦٢ ج ٢.

(٣) الانسياح في الأرض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية، والاستعانة بها على الروم والفرس، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما إلا في السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الأرض. فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر، فإذا استأذنه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم، كما وقع لعمر بن العاص لما أراد فتح مصر، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية، فلما فتحت الشام والعراق جاء إلى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين ووعناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب» فلم يجبه عمر، ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له: «سر ... إني مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي إن شاء الله تعالى، فإذا أدرك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإلا أن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره». فسار عمرو بجنده مسرعاً خوفاً من أن يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع. فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر، ففَضَّ الكتاب وإذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد فإن أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها، وأما إذا أدركك، وقد دخلتها أو شيئاً في أرضها فامض واعلم أنني ممّدك»، فمضى حتى فتح مصر.

ولما فتح المسلمون الأهواز قال عمر: «ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم». ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر. وكان إذا هم المسلمون بالنزول في بلد أو إنشاء معسكر في البلاد المفتوحة أوصاهم أن لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء، حتى إذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على أن يكون مركزها في بلاد العرب. ومع ذلك فلما لم ير بداً من الانسياح في الأرض أذن لقواده بالفتح، ولكنه ظلّ على رأيه في القرشيين على الخصوص، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال: «أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد»، فإذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو أجابه: «قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من غزوك اليوم أن لا

ترى الدنيا ولا تراك». كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط، فلما ولي عثمان خلي عنهم، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد.^{١٤}

فسياسة عمر بن الخطاب في أوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق، وأن يختص قريشاً بالإقامة في المدينة؛ لأنها مركز الإسلام وهم أساسه ومنشأه، على أنه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بداً من الإذن في الانسحاب.

فالعصبية التي قام بها الإسلام هي الجامعة العربية؛ ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين، وخصوصاً عند الأمم التي خضعت لسلطان المسلمين، فكانوا إذا قالوا: «العرب» أرادوا «المسلمين»، وبالعكس. ولفظ «طيبوتا» عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء، والفرق بين هذه الجامعة قبل الإسلام وبعده أن العرب كانوا في الجاهلية عصبية واحدة تختلف باختلاف الأنساب، فأصبحوا بالإسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب، وتركوا ذكر الآباء والأجداد عملاً بما يقتضيه روح الإسلام. وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالأنساب، فأصبحوا في الإسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين، فنشأت فيهم جامعات إسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل.

(٤) طبقات عربية إسلامية

لما قام النبي ﷺ بالدعوة الإسلامية، احتاج إلى من يسمع دعوته وينصره، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه، وهاجر بعضهم إلى الحيشة وهاجر الآخرون إلى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين، وهم أقدم الطبقات الإسلامية. ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم «الأنصار» وهم طبقة أخرى، والطبقتان معاً تسميان «الصحاب» أي: الذين صحبوا النبي أو عرفوه. وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لأحوال خاصة كان لها تأثير في نصرته الإسلام أو نشره. فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الإسلام، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين، ونسبوا إليها فسموا «البدرين» أو «أهل بدر»، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس، فإن الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية. وقد

^{١٤} ابن الأثير ٩٠ ج ٣.

جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة، وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين.

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الأخرى التي كان لها شأن في الأحزاب الإسلامية، كواقعة الجمل وواقعة صفين، فإن شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل؛ لأنهم انتصروا فيها ويسمونهم «أصحاب الجمل»، وشيعة بني أمية يفضلون «أصحاب صفين» لمثل هذا السبب، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه.

على أن الصحابة يتفاضلون أيضًا في السبق إلى الهجرة، أو إلى البيعة، ومنهم أصحاب بيعة العقبة وأصحاب الغار. والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عن صاحب بعدها، ونحو ذلك مما يطول شرحه. ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الأحوال الدينية أو الإدارية، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم.

على أن عصبية النسب لم تذهب بعد الإسلام نهابًا تامًا، ولكنها تحولت إلى وجهة دينية، فأصبح أشرف الأنساب عندهم، أقربها إلى قبيلة النبي «قريش» فالنسب القرشي أشرف الأنساب، وللقريشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء وخصوصًا بعد اشتهاار الحديث: «الأئمة من قريش»^{١٥} فاعتقدوا الفضل للقريشيين على الناس كافة في كل شيء، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا: «لا تحمل لستين إلا قرشية، ولا تحمل لخمسين إلا عربية»^{١٦} وإنه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة^{١٧} وأن القرشي لا يتزندق^{١٨} وأنه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الأخبار^{١٩} وظلت الرياسة في قريش لا ينافيهم فيها منازع إلى عهد غير بعيد.

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والأنصار شأن خاص وحزب خاص، ولا سيما في أيام بني أمية، إذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس إلى عصبية الجاهلية،

^{١٥} العقد الفريد ٤٠ ج ٢.

^{١٦} الأغاني ٨٨ ج ١٥.

^{١٧} الأغاني ١١٠ ج ١٤.

^{١٨} الأغاني ٦٠ ج ١٤.

^{١٩} البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج ١.

فاختصم المهاجرون والأنصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والأنصار من القحطانية (الأوس والخزرج) — فعادوا إلى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين إلى أحد الأحزاب التي نشأت في ذلك العهد، فكان الأنصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية، وعادوا إلى المهاجرة والمفاخرة بالأشعار وغيرها.

وكان الأنصار أهل المدينة من أشجع الناس وهم أهل الشورى، يعتقدون الإمامة، وحكمهم جائز على الأمة وهم شيعة علي وسائر أهل البيت. فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون إلى إذلالهم، وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى أن بعض الأنصار استأذنوا للدخول على معاوية في إبان خلافته، فدخل الحاجب وقال: «هل تأذن للأنصار؟»، وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد الناس إلى أنسابهم».

(٥) سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للإسلام في عصر الراشدين دولة سياسية، بل هي خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور. ورجل هذا العصر، بل رجل الإسلام على الإطلاق «عمر بن الخطاب»، فإن ما يروونه من أعماله وأحكامه يندر اجتماعه في البشر، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة. وأما أبو بكر فلا يقل عظمة عنه، لولا قصر مدة حكمه، ويكفيه من الأثر في الإسلام قتاله أهل الردة؛ إذ رجع بعض الناس عن الإسلام بعد موت النبي، فخاف المسلمون زهاب دولتهم وهي لا تزال في طفولتها، فشمس أبو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وأيد الدين، وكذلك يقال عن علي وعثمان.

(١-٥) أبو بكر

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الإسلام الذهبي، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل. فقد أسلم أبو بكر وعنده من ماله أربعون ألفاً، وهي ثروة طائلة يومئذ، أنفقها كلها في سبيل الإسلام مع ما اكتسبه من التجارة. وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار. وكان منزله في السنح بضواحي المدينة يغدو إليه على رجليه، ويندر أن يركب فرسه. فإذا جاء

المدينة صلى في الناس، فإذا جاء العشاء عاد إلى السنح. وكان مع ذلك يغدو كل يوم إلى السوق يبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها. وكان قبل الخلافة يحلب للحي أغنامهم، فلما صار خليفة سمع جارية تقول: «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا» فقال: «بلى لعمرى لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه». وبعد خلافته بستة أشهر تحول إلى المدينة وقال: «ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة، وما يصلح إلا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم». فترك التجارة، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له: ٦٠٠٠ درهم في السنة. فلما حضرته الوفاة وصى بقطعة أرض كانت له، أن تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين.

(٥-٢) عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب، ففي أيامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم، وانصبت خزائن كسرى وقيصر بين يدي رجاله، ومع ذلك فإنه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية، حتى قيل: إنه كان يقف للخطابة وعليه إزار مرقع بجلد. وإذا أنفق عطاءه واحتاج إلى المال أتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه. وكان شديد الحرص على أموال المسلمين، لا ينفقها إلا في مصالحهم، ويتولى أمورهم بنفسه ديناً وسياسة، فيسعى في نشر الإسلام، ويعلم العرب قواعد الدين، فيطوف الأسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى، وإذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه. ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة، وكان يبعث أناساً من القراء يعلمون أهل البادية القرآن، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب^{٢٠} وكان شديداً على عماله وقواده، يحاسبهم ويدقق في استطلاع أحوالهم، فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الإسلامي الشهير، فإن عمر نقم عليه لأمر يخالف قواعد التقوى، فاستقدمه إليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه^{٢١} وقد يضرب عامله بالدرة أو يوبخه، وليس فيهم من يرد في وجهه أو يعترضه، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر، أو يطمع في أموال المسلمين. ومع

^{٢٠} الأغاني ٥٨ ج ١٦.

^{٢١} ابن الأثير ١٧٤ ج ٢.

ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الأب لبنيه، فيطعمهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة، وإذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهدهم أهلهم بما يحتاجون إليه^{٢٢} وكان عادلاً في الناس رفيقاً بغير المسلمين. وكانت الدنيا في أيامه مجمعة على الطاعة، والناس يدخلون في الإسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة، كأنه كان قابضاً على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد. فلما قتل تزعزت أركانها، ونقض كثير من أهل الأمصار وخصوصاً خراسان وسجستان^{٢٣} وغيرهما من الأطراف البعيدة.

(٣-٥) عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين، لولا ضعفه واستسلامه إلى بعض ذوي قرابته من بني أمية، حتى نقم عليه سائر المسلمين، وخصوصاً أهل المدينة لأسباب تقدم بيانها وقتلوه، فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لأنفسهم. على أن عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه، فقد ذكروا أنه كان عند خازنه ١٥٠٠٠ دينار و ١٠٠٠٠٠٠ درهم، وله ضياع بوادي القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار، فضلاً عما خلفه من الخيل والإبل، وفي أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الأموال^{٢٤} وتعودوا الغنى والترف، فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه، وساعدهم على التمتع قيام معاوية وأطماعهم في الأموال، وسيأتي بيان ذلك.

(٤-٥) علي بن أبي طالب

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة، وكان شديد التمسك بالإسلام، حر القول والفعل، لا يعرف الدهاء ولا يركن إلى الحيلة في شأن من الشؤون، وإنما همه الدين وعمدته في أعماله الصدق والحق. فمن أمثلة تقشفه وزهده أنه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش إلا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلقان عليه ناضحهما بالنهار، ولم يكن عنده خادم يخدمه. وجاءه مال من أصبهان في أيام خلافته فقسمه على سبعة

^{٢٢} الجزء الثاني من هذا الكتاب.

^{٢٣} ابن الأثير ٦٠ ج ٣.

^{٢٤} المسعودي ٣٠١ ج ١.

أسهم، فوجد فيه رغبة فقسمه على سبعة، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد. ورآه بعضهم يحمل تمرًا في ملحفته قد اشتراه بدرهم، فقال له: «يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك؟»، فقال: «أبو العيال أحق بحمله...». ومن أقواله في كيف يجب أن يكون المسلمون قوله: «خمس البطون من الطوي، يبس الشفاه من الظمأ، عمش العيون من البكاء».^{٢٥} ومن أمثلة عدله أنه رأى درعًا له عند رجل فتقاضيا إلى شريح القاضي. فوقف علي بجانب خصمه احترامًا للعدل. وكان إذا بعث رجاله في حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء.

وكان شديدًا في محاسبة رجاله حرصًا على العدل والحق، كما كان يفعل عمر. ولو تولى أمور المسلمين في زمن عمر، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين؛ لكان نصيبه من الحكم أطول، ولما بدا في تدبيره ضعف، ولكنه تولاهما وقد فسدت النيات، وطمع العمال في الأحكام، وأطمعهم وأدهاهم معاوية بن أبي سفيان، فإنه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل، وعلي يضيع الأحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقوادده، والمبالغة في المحافظة على الدين وأسباب التقوى، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه عبد الله بن عباس، وكان عاملًا له على البصرة. فوشى به أبو الأسود الدؤلي إلى علي، فكتب علي إلى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي، فأجابه: «أما بعد فإن الذي بلغك باطل، وإنني لما تحت يدي لضابط وله حافظ، فلا تصدق الظنين والسلام». فكتب إليه علي: «أما بعد فأعلمني ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت، وفيما وضعت». فكتب إليه ابن عباس: «أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك، إنني رزئته من أهل هذه البلاد، فابعث إلى عمك من أحببت فإنني ظاعن عنه والسلام»، واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر، فاجتمعت معه قيس كلها، فحمل مالا وقال: «هذه أرزاقنا اجتمعت»، فتبعه أهل البصرة إلى مكة^{٢٦} ولم ينتفع علي به ولا بأحزابه فعلي لم يفعل بابن عمه غير ما كان عمر يفعل به عماله، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت، وقام معاوية يبتاع الأحزاب بالعتاء ويجتذب القواد بالدهاء.

وزد على ذلك أن رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية. وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء، وجاء الإسلام فكمل الأسباب الباعثة إلى الاتحاد والنهضة والقوة.

^{٢٥} ابن الأثير ٢٠٤ ج ٣.

^{٢٦} ابن الأثير ١٩٦ ج ٣.

على أن سياسة الراشدين على الإجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران، أو تقتضيه سياسة الملك، وإنما هي خلافة دينية وفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر، وإلى أحوال يكفي منها الجامعة الإسلامية والحمية الدينية والأنفة البدوية والأريحية العربية. فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأنت بالعجائب، فانتشر الإسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور^{٢٧} فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب. وإن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد — سنة الله في خلقه.

(٦) انتشار العرب في الأرض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كلمة العرب، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم، فحرضهم على فتح العراق والشام، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب. فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الإسلام قوة. ولكنه منعهم مما وراء ذلك، وأمرهم إذا بنوا بلدًا في دار الفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء، خوفًا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة، على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرا ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز؛ ولهذا السبب أيضًا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادًا على الحديث القائل: «السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل»^{٢٨} ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونًا أو معسكرات، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال؛^{٢٩} ولهذا السبب أيضًا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملاً بوصية النبي ﷺ «أن لا يترك في جزيرة العرب دينان»^{٣٠} وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين^{٣١}

^{٢٧} الجزء الأول من هذا الكتاب.

^{٢٨} ابن خلدون ١١٩ ج ١.

^{٢٩} الجزء الأول من هذا الكتاب.

^{٣٠} ابن هشام ١٩٥ ج ٢.

^{٣١} ابن هشام ٥٠ ج ٣.

فأخرجهم وتخلص من خطرهم، إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك، كما سترى.

فكانت السياسة في صدر الإسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها، وكان القواد الذي فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراءه ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على أطراف الدولة يشدها نحوه، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً، حتى اضطر أخيراً إلى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الأرض، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وأفريقية وغيرها. ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا وتفرق العرب في الأرض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠٠٠٠ نفس^{٣٢} وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد.

(٦-١) الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت إليه بعد الإسلام. ذكروا أن أكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل، وهو جيش يوم الصفقة^{٣٣} والذين تجندوا للإسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الإسلام قليلين كما رأيت، ومملكتهم الواسعة تحتاج إلى رجال، فعمدوا إلى الاستكثار بالتناسل، وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية. فإن عبد المطلب جد النبي، لما ظهرت قريش عليه، نذر الله إذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذودوا عنه، أن ينحر أحدهم قرباناً لله، فجاءه عشرة أولاد فاشتد أزره بهم.

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم، وما وقع في أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيّات، استكثروا من أمهات الأولاد، فضلاً عن الزوجات، فكثر نسلهم — والترف

^{٣٢} ابن خلدون ١٣٦ ج ١.

^{٣٣} العقد الفريد ٧٨ ج ٣.

يزيد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل — وتسابقوا إلى إحراز الجواري، حتى إن بعضهم أحصن ثمانين امرأة معاً، كالغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة^{٣٤} فلا غربة إذا وُلد لأحدهم خمسون ولدًا أو مئة ولد أو أكثر. ذكروا أنه وقع للأرض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد^{٣٥} وخلف عبد الرحمن بن الحكم الأموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ أنثى^{٣٦} وخلف تميم بن المعز الفاطمي أكثر من مئة ذكر و ٦٠ أنثى^{٣٧} وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدًا منهم ستون يركبون الخيل^{٣٨} وولد لابن سيرين ٣٠ ولدًا من امرأة و ١١ بنتًا^{٣٩} وقس على ذلك مما يطول شرحه، وفي التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الأولاد والإخوة والأعمام، كالعباسيين والأيوبيين وغيرهم.

(٦-٢) انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام. فلما ظهر الإسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الأمصار، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا في الأرض، حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقاً وشواطئ المحيط الأطلسي غرباً، وضفاف نهر لوار شمالاً وأواسط أفريقيا جنوباً، وملأوا الأرض فتحاً ونصراً، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا إلى الحضارة وتعودوا الترف، واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم. والقبائل التي قامت بنصرة الإسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية، وإليك أسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الإسلامية ونشرت الدين الإسلامي بالفتح من أول الإسلام:

^{٣٤} الأغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠.

^{٣٥} ابن خلكان ١٤٧ ج ٢.

^{٣٦} نفح الطيب ١٦٤ ج ١.

^{٣٧} ابن خلكان ٩٩ ج ١.

^{٣٨} العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢.

^{٣٩} ابن خلكان ٤٥٣ ج ١.

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خنعم	بهراء
تميم	ذهل	مذحج	عذرة وغيرها
غطفان	شيبان	مراد	
سليم	تيم الله	زبيد والنخع	
هوازن	النمر بن قاسط	الأشعريون	
	وغيرها		
ثقيف		لخم وكندة	
سعد بن بكر وعامر			
ابن صعصة			

على أن هذه القبائل لم تكن في أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الأرض، وأنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فنبا منهم الثغور القصية وأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحمتهم الوقائع وضاعت أسبابهم بتوالي الأجيال حتى خرجت الدولة من أيديهم.

(٦-٣) انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الأرض لم يكن بالفتح فقط، ولكنهم تفرقوا أيضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم، التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة. فقد جلت بطون من خزاعة إلى مصر والشام في صدر الإسلام؛ لأن أرضهم

أجذبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى^{٤٠} وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جذب، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها إلى مصر والشام، يسمونها أعوام الجلاء^{٤١} وكانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام: إذا أجذبت أرضهم يمموا العراق وفارس، فيعطيهما الفرس التمر والشعير، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون إلى بلادهم^{٤٢} خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية. أما بعد الإسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آبائهم أو أعمامهم أو أخوالهم، وغرسوا عليها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم.

على أن الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها، أن يكون بإيعاز بعض الخلفاء أو الأمراء، وخصوصاً بعد رجوع العرب إلى عصبية النسب بين قحطان وعدنان، أو مضر وقيس في عهد الدولة الأموية. فكان الأمير أو الخليفة إذا تولى بلدًا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى، استقدم جماعة من قبيلته، أو من ينتمي إليها بالهلف ونحوه، يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة، فيطلق لهم المرعى ويفرض لهم العطاء، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية)؛ لأنهم نصره وأيدوا خلافته، ولم يكن منهم في مصر إلا بعض البطون، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ، وأول من نبّه هشام إلى نقلهم عبید الله بن الحبحاب، فإنه وفد عليه فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أحياناً، فأذن له في إلحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر، أي: أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر، على أن لا ينزلهم في الفسطاط، فأنزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية والدقهلية) ولا سيما في بلييس وأمرهم بالزرع،^{٤٣} ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها.

^{٤٠} الأغاني ٦ ج ١٣.

^{٤١} الأغاني ٤٧ ج ١١.

^{٤٢} ابن الأثير ٢٢٨ ج ٢.

^{٤٣} المقرئ ٨٠ ج ١.

(٦-٤) بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم وإقرارهم رغبة الأمير أو الخليفة في التخلص من شرهم، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبنو هلال، وهما بطنان من مضر، كان رجالهما إلى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية، محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد: بنو سليم من جهة المدينة، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة، وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم، وعاثوا في البلاد، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم. فلما أفضت خلافة مصر إلى العزيز بالله الفاطمي، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام، فاننتزعها العزيز منهم وردهم إلى قراهم في البحرين، ونقل أشياعهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد، في العدو الشرقية من نهر النيل، فأقاموا هناك. وكان لهم أضرار في البلاد، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم. فاتفق بعد سنين أن المعز بن زيري عامل الفاطميين في أفريقية، شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطرز والرايات، فعظم الأمر على الخليفة بالقاهرة، وهو يومئذ المستنصر بالله، فأشار عليه وزيره أبو محمد الحسن بن علي اليازوري، أن يقرب إليه أحياء هلال وسليم المذكورين، ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال أفريقية، ويرسلهم لاستلام أمورها، فإذا فازوا كانت إحدى الحُسنيين، وإلا فإنه يتخلص من شرهم. فبعث الخليفة وزيره إلى هذه الأحياء سنة ٤٤١هـ وحرّضهم على الذهاب إلى المغرب وتملكه، وفرحوا وأجازوا النيل وساروا برّاً إلى برقة ففتوحها. ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعاً في الكسب، وأصبحت أفريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين، فاقسما البلاد فيما بينهم.^{٤٤}

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين إلى الأندلس بعد إتمام فتحها، إذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم إلى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها، فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، وفيهم قبائل من العدنانية

^{٤٤} ابن خلدون ١٤ ج٦.

والقحطانية^{٤٥} وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها بإقليمه ومرعاه. ناهيك بما كان ينتقل من القبائل أو البطون في أثناء الحروب في عصر الأمويين للنجدة أو نحوها.

(٧) العبيد والموالي في الإسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الإسلامية، وقد أثروا في سياستها وجندها وفي سائر أحوالها من العلم والأدب والفقه، فلا غرو إذا أفردنا الكلام عنهم فصولاً خاصة.

(١-٧) الرق في الإسلام

قلنا: إن الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان أكثره بالأسر أو الشراء، وأما في الإسلام فأكثر الاسترقاق بالأسر، وخصوصاً في أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في أيديهم من الأسرى. فإذا غلبوا جنداً أو فتحوا بلداً، أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله، واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم، وهي كثيرة ربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الألوف، فيختمون أعناقهم ويقسمونهم على الأسهم، وقد يصيب الفارس من العرب مائة أسير ومائة جارية في واقعة واحدة، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الأيام ألف عبد أو أكثر^{٤٦} وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين. على أن الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد.^{٤٧}

والغالب في الأسرى إذا كانوا كثراً أن يباعوا بالجملة قبل تفريق الأسهم، فينادون على الأسير بمائة درهم وأقل أو أكثر، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر. ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الأندلس، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الأسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر^{٤٨} وتكاثرت الأسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة^{٤٩} وكثرت

^{٤٥} نفح الطيب ١٣٧ ج ١.

^{٤٦} ابن الأثير ١٤٧ ج ٤.

^{٤٧} الدميري ٤٩ ج ١.

^{٤٨} نفح الطيب ٢١٣ ج ١.

^{٤٩} ابن الأثير ١٩٩ ج ٦.

الأسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالأندلس، حتى بيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم.^{٥٠}

على أنهم كانوا يعدُّون البلد المفتوح عنوةً ملكًا للفتاحين، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والأنهار والأشجار، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه، كقول سعيد بن العاص: «السواد بستان قريش»، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا: «إن مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا».^{٥١}

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا أسراهم ويحرزوا أثمانهم، لعجزهم عن القيام بمعاشهم، فلم يكن يستبقي الأسرى في حوزته عبيدًا إلا الأمراء، حتى يفتديهم أهلهم أو يعتقدهم هو لسبب من الأسباب.

ومن مصادر الرقيق في الإسلام — غير الأسر — أن بعض العمال، وخصوصًا في أفريقية وتركستان ومصر، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق^{٥٢} وكان بعض أهل الزمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقًا من أولادهم^{٥٣} غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الأصلي في جملة الغنائم.

أما أحكام الأسرى في الإسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء: إما القتل، وإما الاسترقاق، وإما الفداء بمال أو أسرى، وإما المن عليهم بغير فداء، فإن أسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية،^{٥٤} فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الأحوال.

ومن ملك رقيقًا بالأسر أو الشراء أو غير ذلك كان مخيرًا في استبقائه أو بيعه أو المن عليه بالعتق، ومن أعتق عبدًا صار مولاه. وللعتق أسباب كثيرة، أهمها في الإسلام إظهار التقوى أو الغيرة على الدين، فإذا أسلم العبد وأظهر التقوى أطلقه سيده، فقد أعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة ألف عبد^{٥٥} وأعتق محمد بن سليمان

^{٥٠} نفح الطيب ٢٠٩ ج ١.

^{٥١} ابن الأثير ٢٧٩ ج ٢.

^{٥٢} المقرئ ٣١٣ ج ١.

^{٥٣} ابن الأثير ١٣ ج ٣.

^{٥٤} الماوردي ١٢٥.

^{٥٥} ابن خلكان ٢٤٧ ج ١.

٧٠٠٠ مملوك ومملوكة، وقد يعتقونهم فداءً عن يمين، أو وفاءً لنذر، أو التماساً للثواب، أو شكرًا لله على نعمه، أو نحو ذلك. وكان بعض أهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله. وأقسم عمر بن أبي ربيعة لما أسن أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، وقد نظم وبرّ بقسمه غير مرة،^{٥٦} وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد، كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل، فصاح في العبيد: «أي عبد قاتل فهو حر»، فقاتل العبيد قتالاً أعجب منه الناس وانهزم الأعداء،^{٥٧} وكثيراً ما كانوا يرغّبون العبيد في نصرته الإسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق، كما فعل النبي ﷺ يوم حصار الطائف، إذ قال: «كل عبد نزل إلي فهو حر»،^{٥٨} وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق إذا أسلموا، فيدخل بعضهم في الإسلام على نية أن يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب، ولكنهم لما أرادوا ذلك عدّهم المسلمون مرتدين فحل حربهم. على أن الإسلام جاء رحمةً للأرقاء، فأوصى النبي بهم خيراً بقوله: «لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون، وأطعموهم مما تأكلون»^{٥٩} وقال: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. والإسلام من الجهة الأخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة^{٦٠} وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرّق والسّبي بقول الأئمة: «لا سباً في الإسلام، ولا رق على عربي في الإسلام». ومن أحكام العبيد عندهم أن يُعاملوا معاملة نصف الحر، فالعبد إذا أذنب ضرب نصف ما يضرب الحر^{٦١} وإذا أحسن كانت جائزته لمولاه، والأسرى الذين يقعون في أيدي العرب

^{٥٦} الأغاني ٦٤ ج ١.

^{٥٧} ابن الأثير ٧٨ ج ٥.

^{٥٨} المعارف ٩٧.

^{٥٩} المقرئ ١٣٧ ج ١.

^{٦٠} البخاري ٥٩ ج ٢.

^{٦١} الأغاني ١٥٢.

بافتوح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم، فهؤلاء إما أن يفتديهم أهلهم، أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق، أو يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل، أو رعاية الإبل أو الماشية، أو لبري القسي ورمي النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت القتال، أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك. فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته، فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مائة دينار، فإذا كان راعياً للإبل يحسن القيام بها يقدرين قيمته بـ ٢٠٠ دينار، فإذا كان عارفاً بصناعة النبل والقسي يباع بأربعمائة دينار، فإذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار. تلك أثمان العبيد في أواسط دولة بني أمية.^{٦٢}

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الأرض، وهو خاص بالقرى، ويسمى المزارع المقيم «فلاحاً فرازاً»، فإذا أقطعت أرضه، أو بيعت لأحد، أو دخلت في ملك أحد بالفتح أو غيره، كان الفلاح تبعاً لها وصار «عبدًا قنا»، إلا أنه لا يرجو أن يباع أو يعتق، ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراد، بل هو قنٌ ما بقي حيًّا، وكذلك أولاده بعده، فإنهم يكونون عبيدًا لملك الأرض أو مقتطعها، وقد أشرنا إليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية.

(٧-٢) الموالي في الإسلام

والباقون في الأسر إذا اعتنقوا الإسلام نجوا من الرّق غالبًا، إذ يغلب أن يعتقوهم مكافأة لهم، ومن أعتق منهم صار مولى؛ ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب، استنكافًا من استرقاق المسلم، ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي، فإذا قالوا: «الموالي» أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوسًا أو ذميين واعتنقوا الإسلام، أو كانوا ممن لازم العرب أو التجأوا إليهم، ويسمونهم «الحمراء» فإذا قالوا: «الحمراء» أرادوا الموالي. والحمراء في القاموس العجم، وهم كل من سوى العرب.

وأصبح الموالي في الإسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية، كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية، لقول النبي ﷺ: «مولى القوم منهم»^{٦٣} وقوله: «من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة

^{٦٢} الأغاني ١٣٣ ج ١.

^{٦٣} العقد الفريد ١١١ ج ٢.

الله والملائكة والناس أجمعين»^{٦٤} وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري. ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه؛ لأنه لم يعتقه إلا حباً فيه، والموالي يعد عتقه منة لمولاه عليه، فيترك نسبه إلى أهله وينتسب إلى مولاه، فيقال: فلان مولى فلان ولا يقال: ابن فلان. أو ينتسب إلى قبيلته فيقال مثلاً: ابن سريج مولى بني نوفل، ومحرز مولى عبد الدار، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك، وابن عياد مولى بني مخزوم، وقس عليه؛ ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة، وخصوصاً من يعيش من الموالي في بيت مواليتهم، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه، حتى إذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم.

وللموالي فضل كبير في الإسلام؛ لأن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم، لاشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة^{٦٥} ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الإسلام من بقايا الفتي والغنائم في فارس وغيرها. وأكثرهم كانوا غلماناً في جملة السبي، فربوا في الإسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم — منهم أربعون غلاماً كانوا يتعلمون الإنجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد، فغنمهم وبعثهم إلى أبي بكر بالمدينة ففرقهم في أهل البلاد من جملة الغنائم، فاعتنقوا الإسلام وأعتقهم مواليتهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين في السياسة والحرب والعلم والدين، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس فإن أباه منهم، وحرمان مولى عثمان بن عفان^{٦٦} وأيضاً محمد بن إسحق صاحب المغازي والسير، فإن جده يسار منهم^{٦٧} وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في أثناء الفتح أو بعده.

فأبو صفر من سبي دبا في أيام أبي بكر، وحماد الراوية أصل أبيه ديلمي من سبي مكثف بن زيد الخيل^{٦٨} وسائب خاثر أصله من فيء كسرى، ومروان بن أبي حفصة الشاعر الشهير أصله يهودي من سبي اصطرخ^{٦٩} والهروي اللغوي المشهور أسير وقع

^{٦٤} ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١.

^{٦٥} الجزء الثالث من هذا الكتاب.

^{٦٦} ابن الأثير ١٩٢ ج ٢.

^{٦٧} ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨.

^{٦٨} المعارف ١٢٠ ج ٩.

^{٦٩} الأغاني ٣٦ ج ٩.

في سهم عرب نشأوا في البادية^{٧٠} وابن الأعرابي سندي الأصل، وأبو دلامة كوفي أسود كان عبداً لرجل من بني أسد فأعتقه^{٧١} وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم في الإسلام. وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الأسر ولم يتوفق له الفداء، فإن بعض موالى المنصور من أولاد المرازبة^{٧٢} وأبو علي بن بزيمة الذي يروى عنه، وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الأكاسرة، وقعا في الأسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح إلى سمرة بن جندادة الصاحبى فأعتقهما ابنه جابر^{٧٣} وانتقى أبو موسى الأشعري ستين غلاماً من أولاد الدهاقين من سبي بيروذ بفارس، وفرق بعضهم في المسلمين، غير الذين افتداهم أهلهم^{٧٤}.

وكان للخلفاء والأمراء ثقة كبرى بمواليتهم، يعهدون إليهم بكل شؤونهم، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليتهم، لا فرق في أن يكون أصلهم فارسياً أو ديلمياً أو حبشياً أو رومياً، فموالى أبو بكر أولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة، اشتراه أبو بكر بخمس أواق وأعتقه. وهو أول من أذن في المدينة، وكان له مقام رفيع في الإسلام، وكذلك عامر بن فهيرة، وأبو نافع ومرة بن أبي عثمان وغيرهم^{٧٥} وقس على ذلك موالى عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة. وكلهم يستهلكون في سبيل مواليتهم؛ لاعتقادهم الفضل لهم عليهم، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر — من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبى، لما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون، كان هو من حزب الأمين، وأراد أن يحفظ له الأهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه، فالتفت المهلبى المذكور إلى مواليه وقال لهم: «ما رأيكم؟ إنى أرى من معي قد انهزم، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما أحب، فمن أراد الانصراف فلينصرف، فوالله لأن تبقوا أحب إليّ من أن تموتوا».

^{٧٠} ابن خلكان ٥٠١ ج ١.

^{٧١} الأغاني ١٢٠ ج ٩.

^{٧٢} الأغاني ٨٢ ج ٢٠.

^{٧٣} المعارف ١٠٣.

^{٧٤} ابن الأثير ٢٣ ج ٣.

^{٧٥} المعارف ٥٨.

فقالوا: «والله ما أنصفناك إذن ... تكون قد أعتقتنا من الرق، ورفعتنا من الضعة، وأغنيتنا بعد القلة، ثم نخذك على هذا الحال؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك؟». ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه.^{٧٦}

على أن المولى لا يزال أحط مقامًا من العربي. وكان الموالي في صدر الإسلام يتولون كثيرًا من مصالح الدولة التي تفتقر إلى أمانة وثقة، فضلًا عن العلم والدين. ولهم الرواتب السنية^{٧٧} لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج إلى شرف وعصبية، كالقضاء مثلاً، فإنهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم، فإن عمر بن عبد العزيز لما أراد أن يولي مكحولاً القضاء أبى وقال: «قال النبي: لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه، وأنا مولى».^{٧٨}

^{٧٦} ابن الأثير ١٠٦ ج ٦.

^{٧٧} الأغاني ١٦٣ ج ١٠.

^{٧٨} العقد الفريد ٨ ج ١.

وجعلوه قذوتهم، والناس على دين ملوكهم، فكثر الميل إلى المصانعة في ذلك العصر، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها، على أن الأريحية كانت تحول دون تمكنها.

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقتربوا ذنباً، فزادت حاجتهم إلى المصانعة، ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة إلى العباسيين، كانت فوضى بينهم وبين العلويين، فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غل ولجئوا في الاحتراس منهم واتقاء أذاهم إلى الجاسوسية، فبثوا الأرصاد على وزرائهم وعمالهم، يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها إليهم سرّاً، والأرصاد نوعان؛ الأول: أصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم، والثاني: العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية إلى وزيره أو عامله، فيوليهم الوزير بعض شئون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرّاً إلى الخليفة، وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء.

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضايقة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزة النفس من العرب، على أثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء في أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال، واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام في الدولة الإسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام في ممالكهم من أهل اللسان العربي، ويسمونهم عرباً وهم أخلاط من مولدي الأمم الأخرى، فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران إلى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم، إلا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالاً متوالية.

(٣-٤) العائلة في التمدن الإسلامي

كانت العائلة في أواسط التمدن الإسلامي نحو ما هي عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها، فلا نطيل القول في ذلك الآن، وإنما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الإسلامية، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق.

الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه، فهو ليس من محدثات الإسلام، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية، ولم تغير النصرانية شيئاً منه، وظل معروفاً في أوروبا إلى العصور الوسطى وما بعدها، ولا تزال آثاره باقية في أوروبا إلى الآن.

وإذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس، فهو من ثمار التمدن الإسلامي؛ لأنه لم يكن شائعاً قبله، على أنه لم يبلغ الحد الذي بلغ إليه من الشدة والدقة، إلا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم إلى الترف والرخاء، وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها، فلما انتشر الإسلام وكثرت الجوارى وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة، فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض.

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الإسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه، وليس هو من مقتضيات الإسلام كما يتبادر إلى الأذهان، ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسير أقرب إلى ما يراد من رفع الحجاب، ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم، اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا إلى تفسير كتبه، فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامراتين فأكثر، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب إلى سعادة العائلة ونظام الاجتماع، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل، والمسلمون لما استكثروا من الجوارى وساءت الظنون بينهم وبين نساءهم أرادوا الحجر عليهن، ولم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن، واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه، فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً، وغادرها تجالس الخدم والعبيد، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحدثها إلا نادراً، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها إلا إلى القبر.

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن؛ لأنه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين، وهذا نص الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسَكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٦﴾، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولكن الرجل أبى إلا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبواب الدينية الجديدة، وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية في الأجيال المظلمة، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم، وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة.

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم إلى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت، حتى تصدى بعض أرباب الأقلام من المسلمين في أواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا إخوانهم على تركه، وأقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الإضافية في «الجوائب» بالأسطوانة، ثم كتب غيره فصولاً لا تشفي غليلاً، حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه، ولم يترك مجالاً لسائل.

ومن آفات العائلة الإسلامية تعدد الزوجات، وهي أن يتخذ الرجل زوجتين إلى أربع، والشرع الإسلامي يبيح له ذلك بشرط إذا روعي حق مراعاته لم يتخذ الرجل إلا زوجة واحدة؛ لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهما، فإذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة، وهذا نص الآية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنَّى ثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وفي محل آخر: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَنْزَرُوهَا كَالْمُعَلَّفَةِ﴾، فإذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما أقرب إلى النهي عن تعدد الزوجات منه إلى الأمر به، ولذلك رأيت الغالب في العقلاء وأهل المروءة أن يكتفوا بزوجة واحدة، وكان ذلك سهلاً في عصر التسري، إذ قد يأتي النسل من بعض الجوارى فلا يجد الرجل ضرورة إلى الزواج ثانية أو ثالثة

اكتفاء بجواريه، ومن يأتينه بما يشتهي من النسل، على أن تعدد الزوجات ظل متبعًا حتى في أهل الفضيلة والعقل إلى اليوم، ولكن على قلة، وإذا أُحصي المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين، وهم في الغالب من العامة، وإذا كانوا من الخاصة فإنما فعلوا ذلك لأسباب قهرية.

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب إلى تفسير «العدل» بالعدل في النفقة لا في المحبة، على أن كثيرين من أهل الوجاهة والشرف في العصور الإسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الأزواج، والغالب أن تكون السيادة للمرأة الأولى وإن اختلف ذلك باختلاف الأحوال، ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد إهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة، كما فعلت أم جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير.

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مساعها في ذلك ثوابًا؛ روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن إحدى أزواج أبيه قال: إنها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له، ومن جملة برها له أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمنه بالحلي والملابس وتقدمهن إليه، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك، وكان يتزوج عليها كثيرًا من الحرائر فلا يسوؤها فعله، ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة.^{٦٤}

الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات، فالعقلاء يذهبون إلى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وفي الحديث «أبغض الحلال عند الله الطلاق»، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثر من إكثارًا مدهشًا، كما فعل الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل: ٣٠٠، وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من أهليهن، وكان يقول في خطبه: «إن حسنًا مطلق فلا تزوجه». ويليهِ المغيرة بن شعبه فقد تزوج نحو هذا العدد.^{٦٥} على أن الطلاق ما زال مكروهًا كما رأيت من كلام الإمام علي، وأهل الأنفة والفضل لا يطلقون إلا لعلّة كبيرة أو عذر شرعي، ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها في طبقات العامة.

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها، فإذا لم توافقه هان عليه طلاقها؛ لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط إلا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته إذا لم تعجبه، وهذا التضيق ليس من الدين في شيء، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج، وأحاديث تأمر برؤيتها صريحاً،^{٦٦} فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق، على أن للطلاق في بعض الأحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها.

(٥-٣) المعيشة العائلية

الطعام:

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصراً على الألبان، وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها، كما يفعل أهل البادية اليوم، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الإبل، وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة، كالثرديد فإنه يصنع من اللحم واللبن والخبز، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط، كالرغيدة والرهيذة والعصيدة، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لوناً.

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الإبل أو الضأن، وإنما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد، وإذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الإبل يمهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه، وكان حال القرشيين قريباً من ذلك،^{٦٧} وربما أكلوا القراماة ونحاة القرون والأظلاف والمناسب من برادتها، أو القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر، وكانوا إذا عطشوا ولم يجدوا ماء، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الإبل.^{٦٨}

فلما جاء الإسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس، ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجرباب فيه كافور فأحضره إلى أصحابه فطنوه ملحاً، فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو، فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص

خلق يساوي درهمين،^{٦٩} ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها،^{٧٠} وشاهدوا الأرض فظنوه طعاماً مسموماً،^{٧١} ثم ما لبثوا أن أقاموا بين أولئك الأقوام حتى عرفوا مآكلهم ولا سيما الفرس، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والآداب، وليس في الشرع الإسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة إلا ما جاء النص بتحريمه.

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيام بني أمية، وأول من قلد الأعاجم بأسباب الترف معاوية، فتنعم بمأكله ومشربه،^{٧٢} واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكبا، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه، وكانوا يسمونه سيد المرق، والفالونج وهو نوع من الحلوى، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها، وتفننوا في معالجة اللحوم بالألبان والخضار والتوابل على أساليب شتى.

اللباس:

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معاشهم، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الإسلام، وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية،^{٧٣} وإنما هي فارسية، وكذلك النعال والخفاف، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم، وثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب.^{٧٤} وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ﷺ فقد ذكروا أن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة، وهي ضرب من البرود فيه حمرة، وكان كمه قصيراً إلى الرسغ، يلبس أحياناً حلة حمراء وإزاراً ورداء، والإزار قصير إلى أسفل الركبة، ولبس الخف والنعل،^{٧٥} وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الأرض من الخيلاء، ومن أقواله: «فضل الإزار في النار»^{٧٦} ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف.

على أن الذين كانوا يغدون على الشام والعراق من أغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في أوائل الإسلام، ومن المأثور عندهم أن أول من لبس الخز الأدكن من العرب عبد الله بن عامر، وأول من لبس الدرايع السود المختار بن أبي عبيد، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم،^{٧٧} وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الإسلام، والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس، وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله، فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج،^{٧٨} وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة.

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه، وتفننوا بأنواع الأنسجة، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات المشاة في أيامهم، واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمام ويعلقون السيوف على العواتق، وكان الأحنف يقول: «لا تزال العرب عرباً ما لبست العمام وتقلدت السيوف».^{٧٩}

اللباس في عصر الحضارة

فلما أفضت الخلافة إلى العباسيين، واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم، قلدهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣هـ أن يلبسوا القلانيس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها، بدل العمام، أو يعتما فوقها بعمامة صغيرة، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم، وأن يكون اللباس الأسود عامّاً فيهم، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين، فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لباس جبة سوداء يسمونها «السود» تغطي سائر الثياب، وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾،^{٨٠} وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك.^{٨١}

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيايس والخفاف والجوارب وغيرها، مع بقاء ألبسة العرب عند عامتهم، ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود،^{٨٢} وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد،^{٨٣} وأما

لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيايسة الرقاق، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه.

أما عامة الناس فتختلف أشكال ألبستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره، وإنما يقال بالإجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن.

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأُنس والشراب يسمونها «ثياب المنادمة»، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، يصقلونها حتى تلمع وتشرق، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون، ولهم ألبسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك.

أما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم، ومن أمثالهم: «ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يُدرى من هم: رجل رأيتُه راكبًا، أو سمعته يعرب كلامه، أو شممت منه طيبًا».

والخضاب كان مستحسنًا عندهم، وأصله هندي أخذَه الفرس عن الهنود،^{٨٤} ومنه انتقل إلى بلاد العرب قبل الإسلام، ويقال: إن أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب،^{٨٥} وقالوا: بل المغيرة بن شعبة، ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلًا عن الخضاب الأسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت،^{٨٦} وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر،^{٨٧} وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص، فيلون شارببيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم،^{٨٨} وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء، ولا يزال ذلك شائعًا في الشرق إلى الآن، والأكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء، ويندر الخضاب بالزعفران، ولا نعرف أحدًا يبيض شعره بالكبريت.

المأوى:

مساكن العرب

كان العرب قبل الإسلام أهل خيام وأنعام، يحملون منازلهم على ظهورهم، إلا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم، فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء، كأنهم محتلون إلى أجل، وكانوا إذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق، استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء، ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع، ثم أذن لهم بالبناء، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم: «افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنين، والزموا السنة تلزمكم الدولة».^{٨٩}

على أن ناموس العمران غلب على ما أرادته عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات إلى مدن عامرة، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة.

أساليب البناء في الإسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الأجيال، إما رأساً أو اقتباساً، وأهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر، والفارسي في فارس وخراسان، والقوطي في الأندلس وما يليها، فلما تحضر العرب وعمدوا إلى تشييد المباني؛ استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها، ثم أخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الإسلام، فتولد نمط إسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول، وترجع تنوعاته إلى ثلاثة أعصر كبرى:

أولاً: العصر العربي الرومي: هو أقدم عصر البناء في الإسلام، وأساسه النمط البيزنطي، وتنوع في أثناء التمدن الإسلامي وتفرع إلى خمسة أشكال:

- (١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس، والجامع الأموي في الشام.
- (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط.
- (٣) النمط الإفريقي ومنه جامع القيروان.
- (٤) النمط الصقلي في صقلية بإيطاليا ومن أمثله قلاع سرقوسة وغيرها.
- (٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد.

ثانياً: العصر العربي البحث: وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التي نقلت عنها وهي قسمان:

- (١) النمط المصري ومنه الأبنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك، كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن.
- (٢) النمط الأندلسي وهو ما بني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثله أبنية إشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية إلى الآن.

ثالثاً: العصر المختلط: ويدخل فيها:

- (١) النمط الإسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها.
- (٢) النمط الإسرائيلي العربي ومن أمثله الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنائس.
- (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الإسلام ولا سيما في أصبهان.
- (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين.
- (٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها.^{٩٠}

فمساكن الناس في عهد التمدن الإسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور، وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس: من الأكواخ الحفيرة إلى القصور الفخيمة، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الإسلامية عند الكلام على الحضارة.

هوامش

- (١) الجزء الأول.
- (٢) الأغاني ٦٠ ج ١٠.
- (٣) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢.
- (٤) الأغاني ١٧٣ ج ١٤.
- (٥) ابن الأثير ١٩١ ج ٤.
- (٦) الأغاني ١٦٥ ج ٦.
- (٧) الجزء الرابع.
- (٨) الجزء الثاني.
- (٩) ابن الأثير ٢٣٧ ج ٣.
- (١٠) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١.
- (١١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١، وابن خلكان ١١٠ ج ٢.
- (١٢) الأغاني ١٦٣ ج ١٧، وابن الأثير ١٥٩ ج ٤.
- (١٣) الأغاني ٢٣ ج ١٢.
- (١٤) ابن خلكان ٩ ج ١.
- (١٥) الأغاني ١٨٣ ج ١، و ١٨٤ ج ٧.
- (١٦) الأغاني ٢٦ ج ١٩، و ٥٤ ج ٦.
- (١٧) الأغاني ٧٤ ج ١٩.
- (١٨) الأغاني ٦٧ ج ٢.
- (١٩) المسعودي ١٢٢ ج ٢.
- (٢٠) الأغاني ١٨١ ج ٢٠.
- (٢١) الأغاني ٩٨ ج ٤.
- (٢٢) المسعودي ١١٦ ج ٢.
- (٢٣) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١.